



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف - المسيلة -

كلية الآداب و اللغات .
قسم اللغة والأدب العربي .
الرقم التسلسلي :
رقم التسجيل :

كتاب "قضية البنيوية (دراسة ونماذج)" ل:
"عبد السلام المسدي"
- دراسة وصفية نقدية -

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر
تخصص: نقد أدبي

إشراف الدكتور:
الربيع بوجلال

إعداد الطالبة:
هدى بليل

تاريخ المناقشة: 23 ماي 2016

لجنة المناقشة:

د. سليمان بوراس رئيسا
د.الربيع بوجلال مشرفا
د. عزالدين عماري ممتحنا

السنة الجامعية : 2015 // 2016

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى روح والدي الطاهرة، تغمّده الله بواسع رحمته

إلى والدتي الكريمة، أمدّ الله في عمرها

إلى الذين أناروا فوانيس العلم: أساتذتي الأفاضل

من أبجد هوز... إلى مدرّجات الجامعة

إلى كل من غاب حرفهم عن السطر و تعطّر ذكركم في

صفحات القلب

أهدي هذا العمل المتواضع

مقدمة

مقدمة:

لقد اعترت عالم النبوية بتفريعاتها المتباينة ممارسة و تطبيقا، قضايا و إشكالات نظرية و تطبيقية عدّة، و هذه القضايا و الإشكالات تناولها العديد من الباحثين بالدراسة و النقد، بغية الفصل فيها، و من ثم تحديد موقف فكري من النبوية في صورتها العامة، و من أمثلة هذه الدراسات: "المرايا المحدّبة (من النبوية إلى التفكيك)" ل: "عبد العزيز حمودة" و "في معرفة النص" ل: "يمنى العيد" و "معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة)" ل: "عبد الله إبراهيم وآخرون" ... الخ.

و موضوع بحثي هو دراسة وصفية نقدية لإحدى الدراسات النقدية التي كانت النبوية موضوعا لها، و تتجلى هذه الدراسة في كتاب "قضية النبوية (دراسة ونماذج)" ل: "عبد السلام المسدي". و قد حاولت من خلال هذا البحث الإجابة عن مجموعة من التساؤلات التي يطرحها هذا المؤلف النقدي، و التي من بينها: ما مدى مشروعية الدراسة التي يتضمّنّها هذا الكتاب؟ و ما مدى تمثّل "المسدي" لمنهجية البحث العلمي في كتابه؟ وكيف طرح وعالج قضية النبوية فيه؟ و ما هي أهم مسألتها و إشكالاتها التي ناقشها وفصل فيها؟ وما موقع آرائه النقدية بخصوصها ضمن آراء غيره من النقاد تجاهها؟ و ماذا عن موقفه الفكري من قضية النبوية في صورتها العامة؟

وتتمثّل أهم أسباب و دوافع اختياري لموضوع بحثي في سببين اثنين، أحدهما يتعلق بموضوع المؤلف النقدي، و الآخر يرتبط بالمؤلف النقدي في حد ذاته، ويتجلى السبب الأول في كون النبوية مجالا خصبا للدراسة و النقد؛ حيث استقطبت اهتمام كثير من الباحثين والدارسين، و من ثم فقد كانت الرغبة ملحة لدي للاطلاع على أهم خباياها وأسرارها وقضاياها، أما السبب الثاني فيتمثّل في ما تشكل لدي من تصور حول مؤلّف "قضية النبوية (دراسة و نماذج)" ل: "عبد السلام المسدي"؛ حيث بدا لي بعد الاطلاع عليه بأنه أكثر الدراسات ترجمة لهذه القضية و بحثا في أغلب مسألتها وإشكالاتها.

و قد حاولت من خلال هذا البحث سدّ بعض الثغرات الواردة في دراسات نقدية سابقة للمؤلف النقدي ذاته، و لعل أهمّها رسالة الماجستير المعنونة ب: "الخطاب النقدي عند عبد السلام المسدي -دراسة في الرؤية والإجراء-" ل: "تبيلة بومنقاش"؛ حيث تطرقت الباحثة

في رسالتها لمجمل مؤلفات "المسدي" النقدية، التنظيري منها و التطبيقية، لكنها مرّت مروراً سريعاً على كتابه "قضية البنيوية"، و لم توفه حقه من العرض و التحليل، و هو ما حاولت القيام به من خلال هذا البحث.

و قد اعتمدت عند معالجاتي لموضوع بحثي على المنهج الوصفي، و اتبعت خطة تضمّنت: مقدّمة ومدخلا و ثلاثة فصول و خاتمة.

في المدخل قمت بـ: "دراسة وصفية نقدية للجانب الشكلي من الكتاب"؛ و توقفت فيه أولاً عند فحص مدى مطابقة عنوان الكتاب لفحواه، ثم انتقلت إلى البحث عن مشروعية الدراسة التي يتضمنها الكتاب؛ و ذلك باستنباط أهم أسباب و أهداف تأليف "المسدي" له، و تعيين موقعها ضمن دوافع التأليف لدى غيره من الدارسين ممن طرّقوا الموضوع ذاته و في فترة مزامنة له. و بعدها انتقلت إلى البحث عن مدى موثمة المنهج الذي اتبعه "المسدي" والخطة التي قدّم وفقها مادته العلمية للأهداف التي وضعها بادئ الأمر، و في الأخير حاولت استكشاف مدى تمثّل "المسدي" لمنهجية البحث العلمي في تقديم مادته العلمية؛ وذلك بفحص الكتاب من زوايا عدّة، منها: التوازن في التقسيمات و التجزيئات لفحوى الكتاب، مناسبة العناوين لمحتوياتها، الأسلوب و خصائصه... الخ.

أما الفصول الثلاثة فقد قمت فيها بدراسة وصفية نقدية لمضمون الكتاب؛ حيث عرضت في ثناياها محتوى الكتاب، في محاولة لتوضيح كيفية تناول "المسدي" و معالجته لقضية البنيوية، مع مقارنة آرائه و أفكاره بآراء و أفكار غيره من الدارسين ممن تعرضوا للمسائل نفسها التي ناقشها و فصل فيها، بالإضافة إلى شرح بعض ما غمض في دراسته، من خلال الاستعانة بمقتطفات توضيحية من دراسات غيره للبنيوية.

و قد تضمّن الفصل الأول الذي يحمل عنوان "نشأة البنيوية و تبلورها" دراسة للبنيوية في بعديها التكويني و المنهجي (أولاً: البعد التكويني للبنيوية، ثانياً: البعد المنهجي للبنيوية)، أما الفصل الثاني المعنون بـ: "أهم تطورات البنيوية وتحولاتها" فقد شمل مختلف التحولات التي عرفت البنيوية؛ نظراً لاحتوائه على دراسة لأبعادها الثلاثة: البعد الفلسفي والبعد المعرفي والبعد المذهبي (أولاً: البعد الفلسفي للبنيوية، ثانياً: البعد المعرفي للبنيوية، ثالثاً: البعد المذهبي للبنيوية)، أما الفصل الثالث الذي كان عنوانه "أهم تطبيقات البنيوية واستثماراتها" فقد اشتمل تعريفاً بأهم المجالات التي استثمرت الفكر البنيوي، و احتوى على دراسة للبنيوية

في بعديها النقدي والتربوي (أولاً: البعد النقدي للبنوية، ثانياً: البعد التربوي للبنوية). و في الخاتمة قدمت حوصلة لأهم نتائج البحث.

و قد اعتمدت على مجموعة من المراجع التي أنارت فكري، و يسّرت لي إنجاز بحثي، و من بينها: "جدلية الخفاء و التجلي" ل: "كمال أبو ديب" و "اللغة الثانية" ل: "فاضل ثامر" و "أسئلة النقد (حوارات مع النقاد العرب)" ل: "جهاد فاضل"... و غيرها كثير.

و تتمثل أهم الصعوبات التي واجهتني عند إنجاز بحثي في قلة بل و ندرة الدراسات النقدية المتتالة لكتاب "قضية البنية" في حدود اطلاعي، بالإضافة إلى طبيعة الكتابة النقدية عند "المسدي"؛ حيث تتميز بالغموض و التعقيد نوعاً ما، و علاوة على ذلك طبيعة المسائل التي تعرّض لها "المسدي" في كتابه؛ فقد كانت شائكة و معقدة، اختلفت حولها وجهات النظر والتحليل من باحث لآخر، و كان لكل باحث أدلته و حججه النوعية التي استند لها.

و في الأخير أتقدم بشكري الجزيل لأستاذي الفاضل الدكتور "بوجلال الربيع" الذي أكرمني بالإشراف على هذا البحث، و قدّم لي يد المساعدة و العون في إنجازته، جزاه الله عني كل خير.

الفصل الأول: نشأة البنيوية و تبلورها

أولاً: البعد التكويني للبنيوية.

ثانياً: البعد المنهجي للبنيوية.

تمهيد:

عرض "المسدي" لنشأة البنيوية و تبلورها من خلال دراسته لبعديها التكويني والمنهجي على الترتيب؛ حيث تطرق عند دراسته لبعدها التكويني، للإرهاصات الأولى لنشأتها، و لمّا كان يرى أنها عبارة عن منهج، فقد مثّلت دراسته لبعدها المنهجي مرحلة تبلورها. و فيما يلي تفصيل لما جاء به "المسدي" في هذين البعدين.

أولاً: البعد التكويني للبنيوية

إن هدف "المسدي" من دراسته للبنيوية في بعدها التكويني هو: استجلاء مكامن ولادتها¹، مع التأكيد على: تنزّل البعد اللغوي منزلة البعد التكويني بالنسبة لها². و قد تناول "المسدي" البنيوية هنا من خلال ست نقاط هي: خصائص المناخ المعرفي الذي ساد الفكر الإنساني طيلة القرن التاسع عشر، موقف "فردينان دي سوسير" من المناخ المعرفي السائد في القرن التاسع عشر، تجليات فكرة البنيوية في أعماقها الجينية مع "فردينان دي سوسير" في علم اللغة، بين فضل العلم على موضوعه و فضل موضوع العلم على العلم ذاته في نشأة البنيوية، مفتاح التحول الجذري في الانتقال من المنهج التاريخي إلى المنهج البنيوي، حالة الوعي عند العرب و عند الغرب بالبنيوية في بعدها التكويني. و فيما يلي تفصيل وشرح و محاولة مناقشة لما أورده "المسدي" في هذا الشأن.

أ- خصائص المناخ المعرفي الذي ساد الفكر الإنساني طيلة القرن التاسع عشر:

في سياق توضيح الجديد الذي عرفه المناخ المعرفي مطلع القرن العشرين مع العالم اللغوي السويسري "فردينان دي سوسير"، قام "المسدي" بتذكير قارئه بما كان عليه المناخ المعرفي طيلة القرن التاسع عشر؛ حيث قال عنه بأن: ((قوامه منزعان، بهما تحددت فلسفة المناهج؛ أولهما: منزع الوعي بأثر التاريخ و فعله في صيرورة الإنسان، وثانيهما: منزع البحث عن القوانين المتحكمة في كل الظواهر، سواء ما كان منها طبيعياً أو إنسانياً))³. ولهذا التذكير أثره الإيجابي؛ ذلك أن القارئ باسترجاعه لما كان عليه المناخ المعرفي قبل البنيوية، يستطيع تبيين و إدراك جديد البنيوية على نحو أفضل و أحسن.

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة ونماذج)، ص14.

² ينظر: نفسه، ص12.

³ نفسه، ص11.

ب- موقف " فردينان دي سوسير " من المناخ المعرفي السائد في القرن التاسع عشر:

ذهب "المسدي" إلى أن: "سوسير" قد أرسى قواعد منهج معرفي جديد، مغاير لأسلوب النظر الذي ساد المعرفة في عصره -على الرغم من أنه كان في بداية حياته نحويا مقارنا كأمثل ما يكون عليه النحوي المقارن- و ذلك عندما كان يقدم عصارة تصوراته النظرية بشأن الجهاز اللغوي لدى الكائن البشري، على منابر "جامعة جنيف"، ما بين سنة ألف وتسعمائة و سبعة، و ألف و تسعمائة و ثلاثة عشر، و قد كان ذلك دون قصد أو تعمد منه للخروج على ما كان سائدا، بل و حتى دون وعي منه لما كان يؤسس له¹.

و قد برّر "المسدي" ما ذهب إليه هنا، من اعتبار "سوسير" مؤسسا لمنهج معرفي مغاير لما كان سائدا في عصره، بالإحالة إلى ما احتوت عليه دروسه التي كتبها بعده تلامذته؛ حيث رأى بأن القارئ لمحاضراته يبصر بلا شك حيرته الفكرية اتجاه ما أغرق فيه العلم البشري من نهج تاريخي مطلق، كما يبصر أيضا نقضه لـ"مقولة التاريخ" من حيث هي السلطة المطلقة على صعيد المعرفة، و ترشيحه البديل لها و هو "مقولة الآنية"²، و هو ما صرّح به "الطيب دبه" أيضا، عندما قارن بين جديد "سوسير" في دراسة اللغة و بين الدراسات اللغوية السابقة عليها، سواء التاريخية منها أو المقارنة؛ حيث قال: ((و إذا كان ما جاء به دي سوسير يتفق بشكل عام مع منهج الدراسة التاريخية والمقارنة في مسألة الالتزام بمبدأ العلمية و الموضوعية، خصوصا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإنه يختلف عنه بشكل جوهري، من حيث التأسيس المنهجي للمفاهيم و المبادئ. إن التأسيس المنهجي للسانيات دي سوسير يعكس مدى ما تتضمنه أفكاره من مبادئ نقضية تقوم على تقويض المعمار المنهجي للفكر اللغوي السابق))³.

إن ما ذهب إليه "المسدي" من اعتبار "سوسير" مؤسسا و مرسيا لقواعد البنيوية، هو من الأمور المتفق عليها بين أغلب الباحثين و الدارسين؛ و من أمثلتهم "صلاح فضل" حيث قال بأن مبادئ سوسير ((التي أملاها على تلاميذه في كورس الدراسات اللغوية في جامعة جنيف، كانت تمثل البداية المنهجية للفكر البنيوي))⁴، و كذلك "عبد العزيز السمري" حيث

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة ونماذج)، ص11.

² ينظر: نفسه، ص11-12.

³ الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية (دراسة تحليلية إبستمولوجية)، دار القصبية، الجزائر، دط، 2001، ص55-56.

⁴ صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص81.

قال بأن: ((كتاب فردينان دي سوسير "محاضرات في علم اللغة العام" - الذي أملاه على تلاميذه في مدرسة جنيف ثم قام اثنان من تلاميذه بنشر هذه المحاضرات في هذا الكتاب - أول مصدر للبنيوية في الثقافة الغربية))¹، و أيضا هناك "محمد بنيس" الذي قال بأنه قد ((انبثقت البنيوية عن التحولات الخاصة في الدراسة اللغوية نفسها، على يد العالم اللغوي سوسير))²، و بالإضافة إلى الباحثين السابقين هناك "تعمان بوقرة"³ و "أحمد مومن"⁴، و "صالح بلعيد"⁵، و غيرهم الكثير ممن قالوا بتأسيس سوسير للبنيوية.

و مثلما اجتهد "المسدي" في إثبات تأسيس "سوسير" للبنيوية من خلال دفعه القارئ للاطلاع على محاضراته، و التمعن فيها جيدا من حيث فحواها، اجتهد أيضا بنفس الطريقة "سمير شريف استيتية" حيث قال: ((يعد العالم السويسري دي سوسير (ت1913) المؤسس الأول للتوجه البنيوي في دراسة اللغة، و على الرغم من أنه لم يستعمل كلمة البنية أو البنيوية، في محاضراته التي نشرت بعد وفاته، فإن مضمون البنيوية يفصح عن نفسه فيما أودعه سوسير من نظرات في تفسير الظواهر اللغوية))⁶، أما "يوسف وغليسي" فقد عبّر في سياق تتبعه للبنيوية -من حيث نشأتها و تطورها- عن أسفه الشديد من عدم انتباه الباحثين لورود مصطلحي "البناء" و "البنية" بهذه الصيغة في محاضرات سوسير، و قولهم باستعماله مصطلح النسق بدلا منهما⁷، و ربما كان هذا حسب "يوسف وغليسي" الدليل القطعي لتأسيس "سوسير" للبنيوية، علاوة على فحوى محاضراته.

و قد نبّه "عبد القادر المهيري" إلى ضرورة أخذ "البنيوية الأمريكية" بعين الاعتبار في مقابل "البنيوية الفرنسية"، عند التأريخ لنشأة البنيوية عموما؛ حيث قال: ((و قد جرت العادة أن يُورخ للبنيوية انطلاقا من ف.دي سوسير، إلى حد حصر هذا التيار فيما تولّد عن دروسه من اتجاهات، لكن ينبغي ألا ننسى البنيوية الأمريكية التي ظهرت و ازدهرت بمعزل عن

¹ عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، دار الافاق العربية، القاهرة، ط1، 2011، ص194

² محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية تكوينية)، دار العودة، بيروت، ط1، 1979، ص18.

³ ينظر: نعمان بوقرة، اللسانيات (إتجاهاتها و قضاياها الراهنة)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2009، ص65.

⁴ ينظر: أحمد مومن، اللسانيات (النشأة و التطور)، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، دت، ص118.

⁵ ينظر: صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومه، الجزائر، دط، دت، ص32.

⁶ سمير شريف استيتية، اللسانيات (المجال و الوظيفة و المنهج)، جدارا للكتاب العالمي، عمان-الأردن، عالم الكتاب الحديث، إربد-الأردن، ط2، 2008، ص161.

⁷ ينظر: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح (في الخطاب النقدي العربي الجديد)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص120.

التفكير السوسيري؛ فإذا كانت البنيوية في أوروبا بمثابة رد فعل على المدرسة التاريخية وإعادة النظر في منطلقاتها المبدئية و المنهجية، فإن البنيوية الأمريكية قد صدرت أساسا عن مشاغل عملية متصلة شديدة الاتصال بعلم الأجناس، وهذه المشاغل تتمثل خاصة في إيجاد منهج لدراسة لغة القبائل الهندية الأمريكية الرائجة في أمريكا الشمالية، و قد تبين أنها لغات لا يمكن دراستها باعتماد المقولات النحوية الخاصة باللغات الهندية الأوروبية، لكن مما لا شك فيه، أنه توجد وجوه شبه بين التيارين))¹.

ج- تجليات فكرة البنيوية في أعماقها الجينية مع "فيردينان دي سوسير" في علم اللغة:

قام "المسدي" بتوضيح تجليات فكرة البنيوية في أعماقها الجينية مع "سوسير" في علم اللغة؛ و ذلك بتحليله للرابطة المبدئية بين مفهوم "الآنية" و متصور "البنية"، عند دراسته لما وضعه "سوسير" من شروط لنجاح العملية الإبلاغية، ضمن محاضراته حول الجهاز اللغوي لدى الكائن البشري.

إنّ نجاح العملية الإبلاغية من منظور "سوسير" -حسب ما جاء به المسدي- يرتبط ب: ((خصائص اللغة الطبيعية، لا كما هي في ذاتها فحسب، و لكن كما يتلقاها المتلقي؛ والطريقة التي بها يتقبل الإنسان اللغة، هي التي في كل حيثياتها تمكن هذا الجهاز الإبلاغي من أداء وظيفته التعبيرية، و تحقق له ميزته التواصلية))²، و استعمال الإنسان للغة بالأسلوب المستوفي لسلامتها، هو رهين شرطين جوهريين يتمثلان في³:

- أولا: أن يغفل كل من المتكلم و السامع لحظة تحاورهما غفلة تامة عن الوجود التاريخي للغة؛ بمعنى أن يتعاملا معها بتأ أو تلقيا كموجود آني متكامل لحظة وجوده، دون أن يفكرا في البعد التاريخي لها؛ من حيث معطياتها الصوتية أو مقوماتها النحوية أو مراحل تطورها الدلالي، إذ لو أراد أحد في حالة البث مثلا أن يعبر على فكرة ما تجول بخاطره، متوسلا في ذلك بأبسط الجمل، ثم رأى بأن لا ينطق بكلمة منها، إلا بعد أن يستوعب في ذهنه تلك اللحظة تاريخها صوتيا و صرفيا و تركيبيا و دلاليا، لتعطل الإبلاغ، و لما أدى الجهاز اللغوي وظيفته.

¹ عبد القادر المهيري، "اللسانيات الوظيفية"، أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، مارس 1986، ص39.

² عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص12.

³ ينظر: نفسه، ص12-13.

- ثانياً: أن يتجاوز كل من المتكلم و السامع لحظة تحاورهما الوجود الفردي لأجزاء الكلام؛ فلا يفكر في الجزء إلا في علاقته بالكل، بمعنى أن لا يفكر مثلاً في الحرف إلا من خلال وجوده في الكلمة، و لا في الكلمة إلا من خلال وجودها في الجملة، و لا في الجملة إلا من خلال سياقها التركيبي؛ إذ لو أراد أحد المتحاورين أن يُشكّل أو يستخلص دلالة الخطاب من خلال كل جزء من أجزاءه على حدة، لتعطل الإبلاغ، و لتعذّر على الجهاز اللغوي أداء وظيفته أيضاً.

و ملخص الشرطين السابقين، يتمثل في أن استعمال اللغة بشكل سليم يرتبط بضرورة التعامل معها آنياً لا زمانياً، رغم تنزيلها الحتمي في الزمن بحكم أنها كائن تاريخي أولاً، وبحكم توالي أجزائها عند الإفضاء عنصراً عقب عنصر ثانياً.

و بعد توضيح "المسدي" لفكرة "الآنية"، انتقل في مرحلة ثانية إلى تفسير كيفية تولد فكرة "النسق" أو "النظام"؛ حيث رأى بأن: تحتم انتقاء التعامل الزمني مع مقومات اللغة، هو الذي كان سبباً مباشراً في تولد ضابط جديد في فك أسرار الظاهرة اللغوية، و هذا الضابط يتمثل في ارتباط وظيفة الكلام البشري بالنسق الذي تتركب عليه أجزاؤه؛ بحيث تغدو القيمة الأساسية لكل خطاب بشري لا في طبيعته الذاتية، و إنما في كيفية تركيب عناصره، مما يتقبله المتقبل بنفس المعيار الذي ركبّه عليه صاحبه¹.

و لتوضيح أكثر فإن "النسق" أو "النظام" هو ((مجموعة من الوحدات، يقوم بينها عدد من العلاقات تربط بعضها ببعض، فإذا تغيّر عنصر، كان لذلك التغير أثراً على النظام كاملاً. و إلى جانب مفهوم التماسك بين الوحدات، يتضمّن النظام مفهوم العمل والحركة... و تؤدي الوحدات اللغوية وظيفتها، و تكتسي قيمتها في صلب النظام بواسطة ضربين من العلاقات، هما العلاقات السياقية و العلاقات الترابطية))².

و بعد التحليل السابق، قام "المسدي" بتشكيل خلاصة حول كيفية نشأة النبوية، حيث قال بأن: ((لحظة إنتقاء الوعي بتركيب الكلام، مع الوعي بحتمية استيعابه تلقائياً بدون مراوحة زمنية، هي التي تمثل البرهنة النبوية: نعني الومضة التي تجلو فكرة النبوية في أعماقها الجينية))³.

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية النبوية (دراسة و نماذج)، ص13.

² محمد الشاوش، "سوسير و الألسنية"، أهم المدارس اللسانية، ص19-20.

³ عبد السلام المسدي، المصدر السابق، ص13.

و هكذا، فقد كان ((التغيّر في الاتجاه الذي حدث في بداية القرن العشرين، هو تحول اللسانيات التاريخية التي تهدف إلى معرفة تاريخ اللغات، و الكشف عن العلاقات الموجودة بينها، و إعادة بناء اللغات المنقرضة، إلى ما أصبح يُعرف اليوم باللسانيات الآتية، التي تُعنى بوصف اللغات و تحليلها كما هي موجودة في نقطة معينة من الزمن))¹؛ حيث أصبح العالم اللغوي ((يتمركز منذ البدء داخل مجال اللغة، ثم يصف الأنظمة أو البنيات اللغوية، بدل أن يكون المنطلق من الخارج، من مجال تحليلي غريب عن اللغة المراد بحثها))². و قد كان لـ: ((محاضرات فردينان دي سوسير...أهمية الفصل القاطع بين اللغة من حيث هي نظام مستقر، و بين اللغة من حيث هي تغيّر لغوي))³.

إن الطريقة التي اتخذها "المسدي" في إثبات علاقة فكرة البنيوية بالمقولة الآتية التي جاء بها "سوسير"؛ حيث شرح وحل و ربط و فسّر و استنتج أخيراً، بطريقة متسلسلة، منطقية و موضوعية، و لم يقدم معلوماته لقارئه جاهزة دونما تفصيل يُذكر، هو أمر إيجابي؛ ذلك أنه بما فعله، قد جعل قارئه يستوعب المعلومة في طبيعتها و واقعها الذي تكونت فيه؛ أي في أصولها (لقد أصّل لها المسدي).

د- بين فضل العلم على موضوعه و فضل موضوع العلم على العلم ذاته في نشأة البنيوية:

بعد إثبات "المسدي" لنشأة البنيوية مع "فردينان دي سوسير" في "علم اللغة"، راح يدقق أكثر في هذا الأخير؛ أي في علم اللغة، بين فضل موضوعه عليه؛ أي فضل اللغة عليه، وفضله هو عليها في نشأة البنيوية.

و مفاد ما جاء به في هذا الشأن هو: أن الفضل في نشأة البنيوية يعود أساساً إلى اللغة؛ أي أن اللغة هي الرحم الأولى لنشأة المعيار البنيوي، و ذلك باعتبار أنّ ارتباط الفكر البنيوي جنينياً بعلم اللغة، قد كان ارتباطاً بالمعرفة اللغوية من خلال اقترانه بالظاهرة اللغوية ذاتها، إذ من غير الصواب الظن بأن علم اللغة قد أنتج البنيوية بمحض تحول منهجي، بل الصواب هو القول بأنه أنتجها عندما أتاح ظروف الوعي بما كان مستترا في خبايا اللغة الطبيعية؛ من حيث هندستها المتجدّدة، و تلازمها الوظيفي مع اللحظة التواصلية، فهي تمثل

¹ أحمد مومن، اللسانيات (النشأة و التطور)، ص118.

² محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية تكوينية)، ص18.

³ محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1997، ص276.

من خلالهما البناء كأحسن ما يكون عليه التمثيل. و هذا التمييز -حسب رأي المسدي- لا يُنقص في شيء من فضل علم اللغة في نشأة البنيوية، و إنما هو من باب الدقة لا أكثر¹. و قد ذهب "المسدي" إلى أكثر من هذا التدقيق، حين راح يؤكد أن القضية تتعدى هذا الفصل المبدئي في البحث عن صاحب الفضل في نشأة البنيوية، بين العلم وموضوعه، لتتدخل فيها المعارف المتصلة باللغة ذاتها؛ حيث رأى بأن: اللغة و إن تفضلت على المعارف المتصلة بها بالرسم المعماري الذي تتميز به، و الذي أبان عن بؤرة البنيوية فيها، فإن المعرفة اللغوية و بعد أن استوعب الموقف الجديد من الجهاز الإبلاغي الأوفى، قامت باستقطاب فكرة البنيوية، فبيّنت ملامحها، و صقلت المفاهيم المؤدية إليها، و أهم ما استحدثته في هذا المجال، و الذي كان له الفضل في استمرار البنيوية، هو إدخالها عامل "النسبية" في تقدير الظواهر، و تخليها نهائياً عن قانون "الإطلاق" الذي قيّد المعرفة اللغوية زمناً طويلاً².

إن هذا التمييز الذي قدمه "المسدي" بخصوص فضل العلم على موضوعه، و فضل موضوعه عليه، و فضل المعرفة المتصلة بالعلم ذاته في نشأة البنيوية، هو أمر لا تخفى أهميته؛ ذلك أنه يحقق الدقة في التأسيس لنشأة البنيوية، و بصفة عامة فالدقة في التأسيس للمعلومة العلمية، و التفصيل فيها، هو مطلب كل قارئ و باحث مُجد على حد سواء، كما أنها سر تقدم العلوم، هذا بالإضافة إلى أنها الشيء الذي تفتقده الكثير من الكتابات النقدية العربية عموماً.

هـ - مفتاح التحول الجذري في الانتقال من المنهج التاريخي إلى المنهج البنيوي:

لقد تمثل عامل الانتقال من المنهج التاريخي إلى المنهج البنيوي -حسب تحديد المسدي- في التمييز بين زمنين اثنين عند تحليل اللغة، أحدهما هو الزمن الطبيعي، والآخر هو الزمن التقديري.

و "الزمن الطبيعي" هو البعد الموضوعي لتوالي الأحداث، و تعاقب أجزاء الكلام المعبر عن تلك الأحداث، أما "الزمن التقديري" فهو موقف افتراضي يقوم على القيمة الاعتبارية

¹ ينظر: عيد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص14.

² ينظر: نفسه، ص14.

للأشياء كما تعبر عنها اللغة، و هذا الزمن هو بالتحديد جوهر الفكرة البنيوية، و هو - حسب ما ذهب إليه المسدي- المعين الذي تستمد منه سطوتها المنهجية¹.

و- حالة الوعي عند العرب و عند الغرب بالبنيوية في بعدها التكويني:

بعد استجلاء "المسدي" لمكانم الولادة البنيوية، قام بتقييم مدى وعي كل من الفكرين الغربي و العربي بالبنيوية في بعدها التكويني.

ويخصوص الفكر الغربي و الفرنسي منه على وجه التحديد، فقد رأى "المسدي" أنه كان على وعي تام و دائم بالارتباط الجيني بين فكرة البنية و مرتكزها اللغوي؛ سواء في ذلك الظاهرة اللغوية ذاتها، أو المعرفة المترتبة عن فحصها بمنظار العلم الموضوعي، بالرغم من كل التحولات التي عرفتتها البنيوية - التي سيتم تتبعها واحدة واحدة لاحقاً- حيث أن الذي ظل من الثوابت فيه و لم يتزعزع، هو عدم تتصل الفكر البنيوي يوماً من أمومة اللسانيات؛ حيث كانت بالنسبة له المرجع الأساسي في تحليل الظاهرة و في تفسير حيثياتها.

أما الفكر العربي، فقد ذهب "المسدي" إلى أنه قد كان عارفاً بنشأة البنيوية مع "فردينان دي سوسير" في علم اللغة، أما وعيه بالارتباط الجيني بين البنيوية و علم اللغة بكامل تفاصيله، فقد كان الحلقة المفقودة عنده في غالب الأحيان، مما تسبب في التباسات كثيرة لديه، رافقت البنيوية في جميع أبعادها التي امتدت إليها، و قد كان أكثر الواعين بذلك الارتباط الجيني بين البنيوية و علم اللغة إلى حد ما -حسب تقدير المسدي- هم المختصون في المعرفة اللغوية، مع غياب خط التمايز عند بعضهم بين منشأ البنية في اللغة ذاتها، و بين منشأ الصورة البنيوية من خلال علم اللغة².

و هذه الحلقة المفقودة في الفكر العربي، هي التي حاول "المسدي" إيجادها له، وتوعيته بها، من خلال تقديمه السابق للبنيوية في بعدها التكويني، و قد قام بتوظيفها أيضاً في الأبعاد التالية، التي تمثل البلورة و التحولات و الاستثمارات التي شهدتها البنيوية، من أجل توضيح بعض المسائل فيها، حيث عجز الفكر العربي -عكس الفكر الغربي- عن استيعابه لها بطريقة صحيحة، نظراً لفقده هذه الحلقة حسب تقدير "المسدي".

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة ونماذج)، ص14-15.

² ينظر: نفسه، ص15.

ثانيا: البعد المنهجي للبنيوية

إن هدف "المسدي" الأساسي من تناوله للبنيوية في بعدها المنهجي، هو: استنباط أبرز العوامل التي وفرت لها استقطابا فكريا فريدا من نوعه¹. و قد تناولها في هذا البعد من خلال خمس نقاط هي: مفهوم البعد المنهجي، البنيوية بين كونها مضمونا معرفيا محدداً أو شكلا من أشكال معالجة الظواهر، كيفية اقتران التيار البنيوي بأسلوب البحث في مختلف المعارف و موقعه من مختلف المجالات و الحقول العلمية، عوامل استقطاب البنيوية للفكر عموما، المنهج البنيوي و مدى تفعيله و استثماره في المناخين الثقافيين العربي و الغربي. و فيما يلي تفصيل ومناقشة لما سبق ذكره.

أ- مفهوم البعد المنهجي:

عرّف "المسدي" المنهج عند مناقشته لماهية البنيوية بأنه: ((شكل من أشكال معالجة الظواهر))²، كما عرفه "عبد الرحمن بدوي"، أيضا، و قال بأنه: ((الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، التي تهيمن على سير العقل و تحدد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة))³.

ب- البنيوية بين كونها مضمونا معرفيا محدداً أو شكلا من أشكال معالجة الظواهر:

ذهب "المسدي" إلى أن ((البنيوية و بمجرد انبثاقها من حنايا المعرفة المتصلة باللغة، قد تراءت شكلا من أشكال معالجة الظواهر أكثر مما هي مضمون معرفي محدّد))⁴، وقد برّر ما ذهب إليه هنا من اعتبار البنيوية منهجا في دراسة الظواهر على عمومها، أكثر من كونها مضمونا معرفيا محدداً، ب: ((تباين وجهات النظر في تناول الظاهرة اللغوية نفسها))⁵؛ ذلك أن الظاهرة اللغوية في ذاتها قد تم تناولها من قبل مناهج مختلفة؛ كالمنهج المقارن، والمنهج التاريخي، و هنا المنهج البنيوي؛ المنهج المقارن ((يختص بدراسة العلاقات التاريخية بين لغتين أو أكثر ضمن أسرة لغوية واحدة))⁶، والمنهج التاريخي يُعنى ((بدراسة التطور اللغوي عبر الزمن، من خلال الوقوف على التطور الاجتماعي و الثقافي و العلمي

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص19.

² نفسه، ص19.

³ عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3، 1977، ص 05.

⁴ عبد السلام المسدي، المصدر السابق، ص17.

⁵ نفسه، ص17.

⁶ أحمد محمد قنور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ط2، 1999، ص21.

و كل المعطيات المؤثرة في اللغة))¹، في حين أن المنهج البنيوي ((يتناول بالدرس العلمي كل الظواهر اللغوية، بعد تحديد مجالها و زمنها و بيئتها))².

و بالإضافة إلى تعليل "المسدي" السابق لكون البنيوية منهجا، فقد راح يبزر و يعلل أكثر فأكثر المسألة ذاتها، بمناقشته: ما قد انطبع -حسب رأيه- في ذهن القارئ للبنيوية في منعطفاتها التاريخية، من أن وصف اللسانيات بالبنيوية هو من فائض القول لا أكثر، رغم تعدد المدارس اللسانية بما تحمله من تيارات نظرية؛ بين ذهني و توزيعي و توليدي؛ حيث أن القارئ -حسب تقديره- لم يطمئن بسهولة لتحول البنيوية من كونها مضمونا معرفيا يخص اللغة، إلى منهج في تناولها، ينافس في ذلك عديد المناهج الأخرى، فكأنما صار من البديهي عنده أن البحث في اللغة، إنما هو بحث في بنيتها أساسا، و إلا فليس بحثا فيها³.

لقد ناقش "المسدي" هذا الذي انطبع في ذهن القارئ للبنيوية في منعطفاتها التاريخية حسب تقديره، عن طريق تفكيكه لمفهوم البنية في ارتباطها باللغة في عبارة "اللسانيات البنيوية" أو "علم اللغة البنيوي"، و قد رأى بأن كل التحليلات تعود إلى احتمالين تفسيريين فقط؛ أولهما: أن ((المقصود بنسبة البنيوية إلى المجال اللغوي هو اعتبار اللغة ذاتها بناء طبيعيا ليس للباحث فيه من هدف إلا استخراج نسقه و تصوير بناءه المعماري، و بالتالي فإن اللسانيات إما أن تكون بنيوية أو لا تكون))⁴، و هذا الاحتمال لم يأخذ به "المسدي"، أما الاحتمال الثاني، فمفاده أن ((المقصود بنسبة البنيوية إلى المجال اللغوي هو اعتبار أن وظيفة العلم اللغوي تتمثل في استنباط نسق فكري، تتحول في نطاقه المعرفة اللغوية إلى نظام محكم البناء، بحيث يصبح العلم بمثابة البنية الصورية، و هنا قد تكون اللسانيات بنيوية و قد لا تكون))⁵، و هذا الاحتمال هو الذي أخذ به "المسدي"، و اعتبر البنيوية انطلاقا منه منهجا في تناول الظواهر و دراستها.

و إذا كان "المسدي" قد اعتبر البنيوية منهجا، فإن هناك من الدارسين و الباحثين من خالفه الرأي، كما يوجد أيضا من رأى رأيه، و ذهب مذهبه.

¹ أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص22.

² نفسه، ص23.

³ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص17.

⁴ نفسه، ص17.

⁵ نفسه، ص17.

و من أمثلة الدارسين الذين وافقوا "المسدي" الرأي؛ أي الذين اعتبروا البنيوية منهجا، يوجد: "عبد الله الغزالي" حيث قال بأن: ((البنيوية من واقعها ليست مذهباً، و ما هي بنظرية، و ليست فلسفة، و لكنها منهج))¹ و كذلك "فاضل ثامر"؛ حيث كان يصف البنيوية عند حديثه عنها بصفة المنهج²، و أيضا "عبد الله ابراهيم" حيث قال بأن: ((أهم ما يُميّز البنيوية، أنها تهتم بتقعيد الظواهر، و تحليل مستوياتها المتعددة في محاولة للقبض على العلائق التي تتحكم بها، و هذا ما يجعل من البنيوية منهجا لا فلسفة، وطريقة و ليس إيدولوجيا))³، بالإضافة إلى "كمال أبو ديب" حيث ذهب إلى أن ((البنيوية ليست فلسفة، لكنها طريقة في الرؤية و منهج في معالجة الوجود))⁴.

أما المعارضون لرأي "المسدي"؛ أي المعارضون لكون البنيوية منهجا، فهناك الباحثة "سامية راجع"؛ حيث ذهبت إلى أنه لا يمكن إعطاء البنيوية صفة المنهج، لأنها غيّبت ملامحها في غمرة الشكلائية الروسية، مستتدة في ذلك إلى أقوال لمجموعة من الباحثين منهم صلاح فضل و عبد العزيز حمودة؛ حيث اعتبروا الشكلائية -حسب قرائتها لهم- نشاطا بنائيا مبكرا⁵. لكن و بالعودة إلى أقوال الباحثين الذين عرضوا للبنيوية في نشأتها، من أمثال "يوسف و غليسي" وحتى "صلاح فضل" نفسه، فإن الملاحظ هو أنهم قد أرخوا لنشأة البنيوية مع المدرسة الشكلائية، لكن دون أن يكون ذلك سببا في نفيهم عنها صفة المنهج⁶. و بالإضافة إلى ما سبق، هناك من الباحثين من رأى بأن البنيوية مذهب، و من أمثلتهم "شكري عياد" حيث قال: ((البنيوية اليوم مذهب في المعرفة و علم النفس و علم الاجتماع؛

¹ من حوار مع عبد الله الغزالي، أجراه معه جهاد فاضل في: أسئلة النقد (حوارات مع النقاد العرب)، الدار العربية للكتاب، دط، دت، ص207.

² ينظر: فاضل ثامر، اللغة الثانية (في إشكالية المنهج و النظرية و المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994، ص45.

³ عبد الله إبراهيم و آخرون، معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1996، ص39.

⁴ كمال أبو ديب، جدلية الخفاء و التجلي (دراسات بنيوية في الشعر)، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984، ص07.

⁵ ينظر: سامية راجع، "إشكالات البنيوية في كتابات النقاد العرب المعاصرين"، الأثر، مجلة الآداب و اللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة - الجزائر، ع: 05، مارس 2006، ص214-215.

⁶ ينظر: يوسف و غليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 2007، ص66-71. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص81.

أي ما يسمى مرّة بالعلوم الاجتماعية، و مرّة بالعلوم الإنسانية))¹، بالإضافة إلى "رشيد الغزي"² الذي تبني الرأي نفسه.

أما الذين اعتبروا البنيوية فلسفة، فمنهم "الطيب دبه"؛ حيث ذهب إلى أن البنيوية ((فلسفة تقوم على الاهتمام بأمر الصورة (الشكل) و النموذج في أي نوع من أنواع المعرفة))³، و قد راح يوضح في كتابه جميع المؤثرات الفلسفية التي تعرّض لها "سوسير" وكانت سببا في إرسائه لقواعد المنهج البنيوي.

و يوجد من الباحثين من راح يصف البنيوية بأكثر من صفة، و من أمثلتهم "صالح بلعيد"؛ حيث قال عنها بأنها: ((منهج، سببه التطور الثقافي في النصف الثاني من القرن العشرين، و واضع أسس هذا المنهج هو العالم فردينان دي سوسير))⁴، كما قال عنها أيضا بأنها: ((مذهب علمي، يستند إلى وضعية عقلانية، بغية توضيح الوقائع الاجتماعية والإنسانية، بتحليلها و إعادة تركيبها؛ حيث يستهدف بالبحث مختلف المجموعات الاجتماعية من عادات و تقاليد، باعتبارها منظومات تتماسك وفق بنيتها الداخلية))⁵.

و ما يمكن قوله في هذا المقام، هو أن البنيوية قد تكون منهاجا أكثر من كونها شيئا آخر، و ذلك اعتمادا و بنسبة كبيرة على تبريرات "عبد الله إبراهيم" و "المسدي"، فهي أكثر إقناعا من غيرها.

ج- كيفية اقتران التيار البنيوي بأسلوب البحث في مختلف المعارف و موقعه من مختلف المجالات و الحقول العلمية:

بعد إثبات "المسدي" أن البنيوية هي شكل من أشكال معالجة الظواهر أكثر مما هي مضمون معرفي محدد يخص الظاهرة اللغوية فقط، قام بتوضيح الكيفية التي ارتبط بواسطتها التيار البنيوي بأسلوب البحث في مختلف المعارف من جهة، كما وضح موقع هذا التيار البنيوي من مختلف الحقول و المجالات العلمية من جهة ثانية.

¹ شكري عياد، موقف من البنيوية، فصول، القاهرة، مج1، ع2، جانفي 1981، ص188-191. نقلا عن: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص93.

² ينظر: رشيد الغزي، مسألية القصة من خلال بعض النظريات الحديثة، الحياة الثقافية، تونس، ع1، أكتوبر 1977، ص90-92. نقلا عن: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص98.

³ الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية (دراسة تحليلية إبستيمولوجية)، ص43.

⁴ صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، ص32.

⁵ نفسه، ص32.

و مفاد ما جاء به "المسدي" بخصوص كيفية اقتران التيار البنيوي بأسلوب البحث في مختلف المعارف، يتمثل في أن هذا الاقتران قد حصل، عندما أُعْتُبر أن: ((لكل علم مادة، ولكل مادة بنية، و يكفي أن يحدّد الباحث المختص هدفه في استكشاف خصائص بنية تلك المادة حتى يطلق على نفسه أو يطلق عليه الآخرون صفة الباحث البنيوي، بل إن منهج البحث في حقل من المعارف إذا ارتسم لنفسه غاية الكشف عن العلاقات التي تنتظم بها الأجزاء ليأثف منها البناء الكلي، تحتم إدراجه في فلك البنيوية))¹.

أما عن موقع التيار البنيوي من مختلف الحقول و المجالات العلمية؛ و ذلك من حيث مدى جذبه لها حتى تعتمد كمنهج بديل في دراسة مادتها، فإن "المسدي" و من خلال ما ذهب إليه في هذا الشأن، يُلاحظ أنه قد قلب هذه المعادلة؛ حيث رأى بأن: المجالات العلمية على تعددها و تنوعها، بما في ذلك العلوم الإنسانية أولاً، و العلوم الطبيعية ثانياً؛ كعلم التاريخ و علم الاجتماع و علم النفس و علم الأجناس البشرية فضلاً عن الأدب، والرياضيات و علوم الحياة، هي من تسابقت نحو اعتناقه، و ليس هو من اجتهد في جذبه لها نحوه، و علة ذلك بشهادة التاريخ -على حد قول المسدي- هي ما اصطحبه هذا المنهج من تقنيات بحث مغرية قلما أفلت الباحثون من سحر إغرائها².

و إذا كان هذا هو رأي "المسدي" بخصوص طبيعة و عدد المجالات العلمية التي أخذت بالمنهج البنيوي في دراسة مادتها، فالملاحظ، هو أن بعض الدارسين قد قالوا بجذب التيار البنيوي للعلوم الإنسانية فقط، و لم يذكروا العلوم الدقيقة، و من أمثلتهم "عبد العزيز السمري"؛ حيث قال في معرض حديثه عن نشأة البنيوية و تطورها أن: ((كتاب فرديناند دي سوسير (1857-1913) "محاضرات في علم اللغة العام"... أول مصدر للبنيوية في الثقافة الغربية، ليس في علم اللغة فحسب، و إنما في كل العلوم الإنسانية، ذلك لأن سوسير اعتبر اللغة نسقا من العناصر بينها تفاعلات وظيفية و صفية))³.

أما الذين قالوا بجذب البنيوية لكل من العلوم الإنسانية و الطبيعية على حد سواء، فمنهم "محمد بنيس"؛ حيث رأى بأن الدراسات اللغوية بعد أن كانت تستعير من ميادين البحث الأخرى طرقها و مناهجها؛ كالفلسفة، و التاريخ، و العلوم الطبيعية، و غيرها، فإن سوسير قد

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 18.

² ينظر: نفسه، ص 18-19.

³ عبد العزيز السمري، إتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، ص 194-195.

عمل على قلب هذه العلاقة؛ بحيث أصبحت الميادين نفسها تصدر في تحليلها عن منهجه في الدراسات اللغوية¹، و هناك أيضا "حمادي صمود"؛ ففي سياق حديثه عن التحولات الكبرى التي عرفت المعرفة البشرية في نهاية القرن التاسع عشر، قال: ((...وكانت العلوم اللغوية سبابة إلى الاستفادة من هذه المراجعة الأصلية، و صاغت من النظريات و أوجدت من المفاهيم ما مكنها من قفزة عملاقة خلّصتها من ريقه علوم أخرى، و نفضت عنها غبار نظريات و طرق في التحليل و الوصف لعلها المسؤولة عن سيرها البطيء قبل ذلك، بل لقد غدت هذه العلوم اللغوية، و هي في مصطلحهم "الألسنية" أو "علم اللغة" أو "اللسانيات" طموحة رائدة، تمد العلوم الأخرى: صحيحها ونسبها، بما استقام لها من مناهج، و فازت به من طرق في التحليل و التعليل بدية))².

و ربما كان عدم ذكر بعض الباحثين لآثار المنهج البنيوي في مجال العلوم الطبيعية، راجع إلى انحصار تطبيق البنيوية في الوطن العربي في مجال العلوم الإنسانية فقط، وعلى وجه التحديد ميدان الأدب و نقده، و هذا ما سيتم توضيحه لاحقا عند عرض تقييم "المسدي" لمدى تفعيل الفكر العربي للبنيوية و استثماره لها.

د- عوامل استقطاب البنيوية للفكر عموما :

لقد ذهب "المسدي" إلى أن: العوامل التي وفرت للبنيوية ذلك الاستقطاب الفكري الفريد من نوعه -والذي سبق توضيح تجلياته في العنصر الفأنت- هي مقوماتها من حيث كونها بعدا منهجيا أساسا³، و قد حصرها -حسب اعتقاد أهل البنيوية من منظوره- في أربعة عناصر هي كالتالي:

1- تقديم البنيوية بديلا شاملا يستوعب ضمن فرضياته كل أصناف المعرفة البشرية، بعد أن كانت العلوم تدعي لنفسها تشتت الخصوصيات؛ حيث كان كل واحد منها يتمسك بما يميزه عن غيره. و البديل الذي جاءت به البنيوية، يتمثل في اعتبار أن مضمون أي علم من العلوم إنّما هو نسيج من الدوال هي بمثابة العلامات التي

¹ ينظر: محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية تكوينية)، ص21.

² حمادي صمود، المناهج اللغوية في دراسة الظاهرة الأدبية، الأقاليم، العراق، ع:07، 01 يوليو 1979، ص04-03.

³ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص19.

تحيل إلى مدلولات، و مجموع القرائن الرابطة بين هذه و تلك تمثل بنية ذلك العلم¹.

2- توفير البنيوية وسائل عملية تجمع بين البساطة الظاهرة و الدقة المستترة، لاستنطاق الظاهرة موضوع البحث، و تتمثل هذه البساطة و الدقة في العملية المزدوجة التي تتراوح بين التفكيك و التركيب؛ تفكيك الأجزاء المكوّنة لمادة البحث، كما لو أنها مادة خام، ثم إعادة تركيبها بشكل يختلف عن الصورة التي جاءت عليها قبل مباشرتها بالتحليل، و عملية إعادة التركيب هذه ليست واحدة بالضرورة، و إنما من الممكن أن تتعدّد تعددا يفضي إلى هندسات معمارية جديدة للواقع المدروس، و في كل واحد من هذه التعددات يعمل المنهج البنيوي على إثبات أن الأجزاء إذا تراكبت وفقا لثنائيات محدّدة أثمرت نظاما نسقيا هو أحد الصور المنعكسة على مرآة البنية، و انطلاقا من هذه الثنائيات نبع مجال خصب للرياضة الذهنية بحثا عن تطابق أو تقابل، تماثل أو تباين في مد وجزر بين متعة الظاهر عندما يشي بالمخفي، و سحر المستتر عندما يتكشّف عبر السطح البادي، و بديهي أن المنهج -أيا كان مسلكه- إذا تحول إلى أداة طيّعة تُري الباحث ما لا يراه بدونها، فإنه يأخذ هذا الباحث بجاذبيته فينسب إليه مقتنعا أو مستسلما².

3- تحقيق البنيوية للموضوعية في الدرس كأبداع ما تكون عليه الموضوعية؛ و ذلك لقدرتها على إحكام تصنيف الأشياء، و امتلاكها طاقة الاستدلال على تأليف الكليات انطلاقا من الأجزاء الذرية³.

4- توضيح البنيوية لبعض الحقائق الغائبة، و التي من أمثلتها حقيقة أن لانحجاب الأشياء في بعض المساقات، من الدلالة ما يتجاوز في القيمة دلالتها إذا حضرت؛ إذ من الدوال ما يفيد إذا غاب أكثر مما كان يدل لو استقام حاضرا، و كل هذا عائد إلى ارتباط الدلالة بمفهوم العلامة؛ من حيث أن الشيء إذا ذكر كان علامة، و إذا لم يذكر كان عدم ذكره في حد ذاته قرينة تقوم مقام العلامة الواسمة. و قد

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة ونماذج)، ص19.

² ينظر: نفسه، ص19-20.

³ ينظر: نفسه، ص20.

وضّحت النبوية هذه الحقيقة عندما أولت -ضمن تقنياتها التطبيقية- دراسة ما غاب من الخصائص عند دراسة ما حضر منها¹.

إن "المسدي" و عند ذكره لعوامل استقطاب النبوية للفكر عموماً، كان يسبق جل تلك العوامل بألفاظ من مثل: **تراعت** و كأنّها تقدم البديل الشامل، **بدت** و كأنّها تحقق الموضوعية كأبداع ما تكون عليه الموضوعية، و حتى عندما لم يذكر مثل هذه الألفاظ، عند تطرقه للعامل الثاني مثلاً، فإنه قد قال في ختام حديثه عنه، أنه و بسبب ما يمتلكه من جاذبية، فإنه يجعل الباحث -أياً كان- ينتسب إلى النبوية إن مقتنعا أو مستسلماً، ولم يقل مقتنعا فقط. و كل هذا إن دلّ فإنّما يدل على أن "المسدي" ينظر إلى المنهج النبوي بشيء من النسبية، من حيث فاعليته العملية، دون الإطلاق الذي لقيه عند أهله؛ فهو عنده -حسب ما يبدو- نعم، يحقق الموضوعية لكن ليس بتلك الصورة الكاملة، ونعم جاء ببديل لكنه ليس بتلك الشمولية... .

و للباحثين غير "المسدي" آراؤهم الخاصة بهم حول مدى فاعلية المنهج النبوي، لكن أغلبها كانت محصورة حول مدى فاعليته في ميدان النقد الأدبي فقط، و لهذا سيتم توضيحها لاحقاً عند التطرق للنبوية في بعدها النقدي.

و بصفة عامة حول علاقة جديد المناهج بقديماً، فقد ذهب "عبد الكريم الرديني" في سياق حديثه عن مختلف مناهج الدراسة اللغوية، إلى أن بروز منهج جديد لا يعني أبداً أنه قد قضى على منهج آخر قضاء نهائياً بظهوره، بل إنّه إذا كان منهج ما سمة عصر ما، فلا مانع من أن يعيش معه منهج آخر من عصر سابق، و إن كانت الغلبة في غالب الأحيان للمنهج الأحدث، و قد يجمع الباحث بين أكثر من منهج يعالج به مادة بحثه؛ كأن يتّخذ من المنهج الوصفي سبيلاً إلى المنهج التاريخي، أو أن يستعين به في معالجة فكرة على المنهج المقارن، أو يسلك طريقاً إلى المنهج المعياري القياسي².

هـ - المنهج النبوي و مدى تفعيله و استثماره في المناخين الثقافيين العربي و الغربي:

قيّم "المسدي" وضع النبوية باعتبارها منهجاً في المناخين الثقافيين العربي و الغربي، وذلك من حيث مدى انتشارها و استغلالها فيهما، و قد رأى بأنها في المناخ الثقافي الغربي

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية النبوية (دراسة و نماذج)، ص20.

² ينظر: عبد الكريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، دار الهدى، الجزائر، دط، 2009، ص70-71.

وخصوصا الفرنسي أثمرت عطاء متنوعا؛ حيث استغلت فيه من قبل مختلف مجالات العلم و المعرفة، الإنسانية منها و الطبيعية، مما نتج عنه تولد أبعاد أخرى لها تكمل البعدين السابقين التكويني و المنهجي¹.

أما في المناخ الثقافي العربي، فقد قدّم "المسدي" استخلاصين اثنين هما:

أولاً: أن البنيوية عرفت انتشارا كبيرا في المناخ الثقافي العربي، لكنها عرفت تطبيقا محصورا في مجال الأدب لا أكثر، و الغريب في الأمر هو عدم اهتمام الباحثين ببنيويات توزعت على مختلف الحقول المعرفية، بل و عدم قدرتهم على تجسيد ريادات منهجية انطلاقا من جداول البنيوية في أي ميدان من الميادين العلمية، والأشد غرابة هو أن البنيوية حتى في مجال البحث اللغوي لم تعرف ريادات متميّزة، بل قصارى ما عرفته فيه كان صورة عارضة من صورها، تمثلت في المنهج الوصفي الذي استوى ضديدا للمنهج المعياري، و لم يكن كفيلا ببعث وعي بها في أصولها، مما حال دون ترسيخ لسانيات عربية تصدر عن هذا المنهج في تصوره الإدراكي².

ثانياً: أن البنيوية حققت في مجالات البحث العلمي تأثيرا غير مباشر، لكنه كان عميقا و ذا انعطافات مترامية الأبعاد، و قد تمثّل في استلهاام الباحثين لها عند إقدامهم على دراسة الماضي و فحص خباياه، نظرا لأنها كانت المسوّج الحقيقي لعملية استكشاف التراث برؤية شمولية لا تتقيد تقيدا حرفيا بالترتيب الزمني لمفاصل التاريخ، و لا تدعن بالضرورة لمنطق تسلسل الأحداث أو توالدها سواء بالتعاقب الزمني أو بمحض ما اتفق، و الذي يسرّ هذا المسلك المنهجي و عممه هو عدم ارتدائه بالتصريح ثوب البنيوية، و إنّما صيغ في متصور قديم في داله، مستحدث في مدلوله، و هو مفهوم القراءة، فكانت الثمرة أن مناهج البحث العربي في حقول معرفية متنوعة أصبحت تتعامل مع تاريخ الفكر دون الرضوخ لنواميس الفكر التاريخي، إذ تسنى لها استقراء التراث في مادته التاريخية دون إذعان لتراتب التطور التاريخي³.

إن توضيح "المسدي" لذلك الاستثمار الواسع الذي لقيته أو حظيت به البنيوية في بيئتها الأصل، وما أثمره من عطاء متنوع نتج عنه تولد أبعاد أخرى لها تكمل بعديها السابقين

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص21.

² ينظر: نفسه، ص21.

³ ينظر: نفسه، ص 21-22.

التكويني والمنهجي، هذا التوضيح يدل على اقتناع "المسدي" بجدوى المنهج البنيوي وفاعليته، ومن ثم فإن توضيحه بالمقابل لمكامن النقص في توظيف البنيوية وتفعيلها في المناخ الثقافي العربي، إن دل على شيء فإنما يدل على محاولته دفع القارئ العربي إلى إكمال ذلك النقص الحاصل في استثمار البنيوية، من أجل الوصول إلى نتائج أفضل وأحسن مشابهة لنتائج تفعيلها عند نظيره الغربي.

الفصل الثاني: أهم تطورات البنيوية و تحولاتها

أولاً: البعد الفلسفي للبنيوية.

ثانياً: البعد المعرفي للبنيوية.

ثالثاً: البعد المذهبي للبنيوية.

تمهيد:

بعدما عرض "المسدي" لنشأة البنيوية و تبلورها من خلال دراسته لبعديها: التكويني والمنهجي، قام بعرض مختلف التحولات و التطورات التي عرفتھا، و ذلك بدراسته لأبعادھا الثلاثة التالية: البعد الفلسفي و البعد المعرفي و البعد المذهبي. و فيما يلي تفصيل لما ورد فيها.

أولاً: البعد الفلسفي للبنيوية

تناول "المسدي" البنيوية في بعدها الفلسفي، و هدفه الرئيس من ذلك هو: توضيح مقومات هذا البعد في خلفياته التأسيسية¹. و قد عرض "المسدي" للبنيوية هنا من خلال النقاط التالية: كيفية تولد البعد الفلسفي للبنيوية من البعد المنهجي لها، أسباب تحول البنيوية من كونها منهجا إلى فلسفة وموقع الفلسفة البنيوية بالنسبة لغيرها من الفلسفات، مقومات البعد الفلسفي للبنيوية في خلفياته التأسيسية، موقفه من منطلق البنيوية في بعدها الفلسفي، الإنسان و موقعه في الفلسفة البنيوية، موقع البنيوية في الفكر العربي على الصعيد الفلسفي، مدى وعي كل من الفكرين العربي و الغربي بمقومات البعد الفلسفي للبنيوية في خلفياته التأسيسية. و فيما يلي تفصيل و مناقشة لما أورده "المسدي" في هذا الشأن.

أ- كيفية تولد البعد الفلسفي للبنيوية من البعد المنهجي لها:

ذهب "المسدي" إلى أن تحول البنيوية من كونها منهجا إلى فلسفة، قد حدث: بتحويل قواعد المنهج البنيوي إلى مضمون نظري؛ أي إلى محتوى فكري، و من ثم تمّ تأسيس تيار فكري ينطق باسم النظرية الجديدة، محوّلًا إياها من سمة المقاربة إلى صورة المدرسة المتكاملة².

ب- أسباب تحول البنيوية من كونها منهجا إلى فلسفة و موقع الفلسفة البنيوية بالنسبة لغيرها من الفلسفات:

لخص "المسدي" أسباب تحول البنيوية من كونها منهجا إلى فلسفة في النقاط التالية³:

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص23.

² ينظر: نفسه، ص23.

³ ينظر: نفسه، ص23.

1- إنغماس بعض المعارف في بوتقة النهج البنيوي، و من ثم اقتحام البنيوية منهجيا سبل المعرفة المعاصرة.

2- إنغماس فكرة البنية في جدل التنظير العلمي.

و الفلسفة البنيوية -مثلما وضع المسدي- هي فلسفة مضادة، انتصبت في موقع الرفض أكثر من انتصابها على مسلك الاسترسال بالنسبة لغيرها من الفلسفات¹. و في العنصر الموالي توضيح لمكن التناقض و التصادم بين الفلسفتين البنيوية و التاريخية.

ج- مقومات البعد الفلسفي للبنيوية في خلفياته التأسيسية:

لقد رأى "المسدي" بأن: ارتباط البعد الفلسفي للبنيوية بالبعد التكويني لها، و على وجه التحديد العلاقة العضوية بين المضمون النظري و فكرة الآنية، هو ما انحجبت بعض دقائقه عن الدارسين و الباحثين²، و هو الذي حاول توضيحه عند تطرقه لمقومات البعد الفلسفي للبنيوية في خلفياته التأسيسية؛ حيث قام أولاً بتصحيح مفهوم الدراسة الآنية، ثم حدّد انطلاقا من هذا المفهوم مرتكز البنيوية في بعدها الفلسفي، و بعدها قدّم قراءته الخاصة به لمختلف المواقف التي اتخذتها الفلسفة البنيوية؛ حيث تُمثّل هذه المواقف في مجملها مضمونها النظري.

لقد ارتبط مفهوم البنية -و ما ترمي إلى تصويره من انتظام داخل الظواهر- في أذهان العديد من الدارسين و الباحثين - حسب تقييم المسدي - بلحظة آنية؛ أي بزمن ساكن، فانطلقوا يفحصونها من خلال مظهر الثبوت. و واقع الأمر كما يعتقد "المسدي" يتمثل في أن مفهوم البنية و ما ترمي إليه، إنّما يرتبط بزمن افتراضي لا بزمن طبيعي، و من ثمّ اتسعت -حسب رأيه- آفاق المدى التاريخي الذي تنتزل فيه البنية، و أصبح من الممكن الحديث عن آنيات متتابعة، و لكل آنية على محور الزمن بنية مرادفة، و من هذا المنفذ صح الحديث عن تعاقب البنى، و أمكن تصور تسلسل زمني للآنيات نفسها، و هذا الأمر - حسب قول المسدي- ليس مجرد رصف متلاحق لحالات ساكنة، فالسكون يتنافى و جدلية الحركة، و إنّما هو بمثابة فحص للظواهر بعد تقطيع محورها الزمني تقطيعا منهجيا، أي بعد اسقاط الزمن الافتراضي على الزمن الطبيعي. و إذا تمّ التسليم -كما قال المسدي- بأن

¹ ينظر: عيد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 23.

² ينظر: نفسه، ص 23.

تتبع توالي الآليات هو استقراء للحركة من خلال تعاقب البنى، أمكن القول بأن البنية التاريخية لظاهرة ما تتطابق مع تاريخ حركتها، و هو ما يؤول -دون اعتبار لتوازي الألفاظ- إلى تطابقها مع حركة تاريخها¹.

و إذا كانت هذه هي قراءة "المسدي" لطبيعة الزمن الذي يرتبط به مفهوم البناء، و هو زمن افتراضي، فإن هناك من الدارسين و الباحثين من ارتبط مفهوم البناء في أذهانهم بلحظة آنية ساكنة؛ أي بزمن طبيعي، و من أمثلتهم يوجد "أحمد مومن"؛ حيث قال عند تفريقه بين اللسانيات التاريخية و اللسانيات البنيوية أن: ((اللسانيات الآنية (Linguistique synchronique) تدرس أي لغة من اللغات على حدة، دراسة وصفية في حالة معينة (Etat de langue)؛ أي في نقطة زمنية معينة... أما اللسانيات الزمانية (Linguistique Diachronique) فتتناول بالدراسة التغيرات و التطورات المختلفة التي طرأت على لغة ما عبر فترة من الزمن أو خلال حقب متتابعة في الزمن الماضي. و بدون شك، فإن كلا المنهجين مهم في الدراسة اللغوية، و ينبغي فقط عدم الخلط بينهما عند البحث؛ إذ لكل منهما مبادئه الخاصة: فالمنهج الآني منهج استقرائي ساكن، و المنهج الزماني منهج حركي تطوري))²، كما ذهب إلى ذلك أيضا "أحمد محمد قدور"؛ ففي سياق توضيحه لجديد "سوسير"، قال بأن ((سوسير يرى أن الظواهر اللسانية يمكن أن تُدرس بالنظر إلى الزمن بإحدى طريقتين: الأولى هي الدراسة في زمن محدد؛ أي (Synchronique) وفق مصطلحه الذي يقابله عندنا التزامني و الوصفي و التعاصري والتواقي و نحو ذلك. والثانية هي الدراسة التي تجري عبر مراحل زمنية متتالية؛ أي (Diachronique) حسب دو سوسير، و يقابل هذا المصطلح عندنا التعاقبي و التطوري والزماني و التاريخي ونحوها))³.

و قد وافق "نعمان بوقرة" "المسدي" فيما ذهب إليه، من إمكانية دراسة مختلف التغيرات والتطورات لأي ظاهرة ما بواسطة المنهج البنيوي، لأن الدراسة الآنية فيه لا ترتبط بزمن طبيعي و إنما بزمن افتراضي؛ حيث قال في معرض حديثه عن الآنية و الزمانية

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص24.

² أحمد مومن، اللسانيات (النشأة و التطور)، ص125.

³ أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص19.

أن: ((اللسانيات الحديثة تجعل البحث الوصفي أو التزامني مُقدِّماً على المنهج التاريخي من حيث إجراءات البحث؛ و ذلك لأنَّ وصف نظام لغوي في زمن ثان، ثم وصف نظام لغوي من اللغة نفسها في زمن ثالث، يجعل من الممكن بعد ذلك عمل دراسة لغوية تاريخية توضح الأصل و النشأة و اتِّجاهات التغيُّر، إلّا أنَّ تقديم أحدهما على الآخر لا يعني إلغاء الثاني))¹، و قد أكَّد "نعمان بوقرة" ما ذهب إليه هنا حين قال في سياق إلحاحه على ضرورة التمييز بين الدراسة التاريخية و الدراسة الآنية أن: ((العلاقة بين الزمانية و الآنية من نوع آخر، يمكن أن نسميها بكونها تعاقبية (زمانية=آنية) و الآنية تسبق الزمانية، و إذا كانت الزمانية مترتبة من سلسلة نقطية تمثِّل النقطة فيها الآنية، فإنَّ الآنية تستحيل منها مستوعبا لأبعاد الزمانية بمقتضى أنه يدك الحواجز التطورية، فيصهر التعاقب في بوتقة التواجد الآني... و في الأخير ينبغي على المحلِّ اللساني أن يُميِّز بدقَّة بين الظاهرة الآنية أو الثابتة (Static) و بين التعاقبية و الحركية (Dinamic) في محاولاته الرامية إلى استكشاف النظام و حركيته))².

أما "يمنى العيد" فقد رأت بأن مأزق البنيوية يكمن في عجزها عن أن تفسر بنيويا الانتقال من بنية إلى أخرى³، و هو ما ذهب إليه كل من "ميجان الرويلي" و "سعد البازغي" عند توضيحهما لأهم القضايا التي تمحورت حولها الاتهامات السلبية الموجهة للبنيوية؛ حيث قالوا بأن: ((البنيوية تتجاهل التاريخ؛ فهي و إن كانت إجرائية فاعلة، جيِّدة في توصيفها ما هو ثابت قار، إلّا أنها تفشل في معالجة الظاهرة الزمانية))⁴.

و انطلاقاً من ارتباط مفهوم البناء بزمن افتراضي لا بزمن طبيعي، و الذي مفاده أن البنيوية تعتمد على الموقع الافتراضي من الأشياء، و تتوسل بالمسلك التقديري في تحليل الظواهر، توصل "المسدي" لحقيقة: اندراج الفلسفة البنيوية ضمن "سلطة المفاهيم"، في مقابل اندراج الفلسفة التاريخية ضمن "سلطة الوقائع"، و هو سبب تصادم هاتين الفلسفتين؛ ذلك أن السلطتين السابقتين متعارضتان جوهرياً، و كل واحدة منهما تعترم الانفراد بوجاهة

¹ نعمان بوقرة، اللسانيات (اتجاهاتها و قضاياها الراهنة)، ص77.

² نفسه، ص77-78.

³ ينظر: يمنى العيد، في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط1، ص34.

⁴ ميجان الرويلي و سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تياراً و مصطلحاً نقدياً معاصراً)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2002، ص75.

الأحكام؛ "سلطة الوقائع" تنطلق من اعتبار الحدث ذاته أساس فهم الأشياء، و لا مجال لتحليل الظواهر إلا بعد الامتثال لحيثيات الواقع كما هو، أما "سلطة المفاهيم" فإنها تزعم أن المعقولات المشتقة من الأحداث هي المفسر الأساسي للظواهر و الوقائع معا، و لا مجال لفهم الأشياء إلا بعد الاتفاق على وسائل تحليلها من خلال الأدوات الذهنية المتيسرة¹.

وبعد هذا، وضح "المسدي" جملة المواقف التي انسأقت إليها البنيوية انطلاقا من اندراجها ضمن "سلطة المفاهيم"، محاولا بذلك إزالة ما غمض أو التبس فهمه فيها من طرف الباحثين و الدارسين، و تتمثل أهم هذه المواقف التي اتخذتها البنيوية - مثلما جاء بها المسدي- في التالي:

1- موقف الفكر البنيوي من موضوع تفسير الظواهر: وضح "المسدي" ما جاءت به الفلسفة البنيوية بخصوص كيفية تفسير الظواهر، في مقابل ما ذهبت إليه كل المذاهب الفلسفية التي تحتكم إلى معيار الزمن بشكل أو بآخر بخصوص الموضوع ذاته.

لقد اعتمدت كل المذاهب التي تحتكم إلى معيار الزمن بشكل أو بآخر في تفسير الظواهر -حسب المسدي- على مبدأ التعليل التاريخي، و التعليل التاريخي هو تعليل سببي يتحدّد فيه اللاحق في ضوء السابق، و من ثم يكون الترابط الزمني توافقا بين الأسباب ونتائجها، وقرانا بين العلة و ثمرتها، و بحكم هذا المنهج في التفسير تتحول كل نتيجة سببية إلى سبب جديد يفرز بدوره نتائج مغايرة للأولى².

أما النظرية البنيوية فقد قال عنها "المسدي" بأنها هي الأخرى قد اعتمدت مبدأ التعليل السببي، لكنها اعتمدته في نمط جديد مغاير للسابق؛ إذ أن التعليل السببي حسبها يقوم على تفسير الحاضر بالحاضر، لا على تفسير الحاضر بالغايب، و تفسير الحاضر بالحاضر معناه اعتبار أن الأشياء مترابطة بعضها ببعض، ترابطا يعطي لوجودها المشترك وزنا إجرائيا يقوم مقام السبب من النتيجة، و هذا هو الذي أصبح مع البنيوية ضربا من العلية الجديدة القائمة أساسا على الاندراج المتزامن في البناء الواحد. و من هنا توارى في الفلسفة البنيوية مسلكان في تفسير الظواهر، يمكن أن يتواقنا كما يمكن أن يتفاصلا؛ أولهما: البحث في البنية على أنها شيء قائم، و الثاني: البحث في البنية على أنها شيء صائر مع

¹ ينظر: عيد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص24.

² ينظر: نفسه، ص25.

صيرورة الزمن، و بهذا ينعطف تفسير الظاهرة من خلال أجزائها وهي مترابطة، على تفسيرها من خلال البحث في نشوء العلاقة بين كل جزء و آخر فيها¹.

و إذا كان "المسدي" قد رأى بأن البنيوية في تفسيرها للظواهر، لم تلغ تماما مبدأ التعليل الزمني، و إنما جاءت بضرب جديد من العلية يقوم أساسا على الاندراج المتزامن في البناء الواحد، فإنه يوجد من الباحثين و الدارسين من ذهب إلى أن البنيوية قد ألغت تماما مبدأ التعليل، و منهم "نجيب العوفي"؛ حيث قال عند توضيحه لموقفه من البنيويتين "الشكلانية" و "التكوينية" أن: ((نقطة الحساسية و الحرج في البنيوية الشكلانية هي بالضبط نقطة قوتها و إبداعها، و هي نزعتها العلمية-التقنية الباردة، و طموحها إلى أن تصير علما خالصا بقوانين الأدب، و مختبرا اكلينيكيًا لتجاربه و نصوصه، و هي بنزعتها تلك و طموحها هذا تقطع (الصلة) مع المناهج الأخرى، و تطرحها على الرف، و تستبدل التعليل بالتحليل والتفسير بالفهم؛ أي تنسخ، و هي تعيد قول النص سؤالًا بسؤال ومقالًا بمقال))².

2- موقف الفكر البنيوي من موضوع (البنية/الوظيفة): لقد وضّح "المسدي" القضية الفكرية التي يتعلّق بها هذا الموضوع، و وجهات نظر الفلاسفة بشأنها، كما وضّح أيضا موقف البنيوية منها، و نتائج موقفها هذا عليها.

و خلاصة ما جاء به "المسدي" في هذا الشأن، يتمثل في أن موضوع (البنية/الوظيفة) يتعلق بقضية (الماهية/الوجود)، و هذه القضية انقسمت نظريات الفلاسفة بموجبها إلى اتجاهين اثنين: اتجاه قائل بتحديد ماهية الأشياء لوجودها، و اتجاه قائل بتحديد وجود الأشياء لماهيتها، و بين هذين الاتجاهين لم تحسم البنيوية أمرها إلى أيهما تنتمي، أو بأيهما تأخذ؛ حيث يُلاحظ في تطبيقات الفكر البنيوي من يفسر بنية الظواهر انطلاقا من مضمونها، و من يحدد مضمون الظواهر من خلال استقرائه لبنيتها. و البنيوية بعدم تحديدها لاتجاه واحد تأخذ به، أبقت على شيء من المرونة فيها، و هذه المرونة أضفت طواعية خاصة على الفكر البنيوي، مما أخصب الجدل النظري في شأنها³.

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 25-26.

² نجيب العوفي، درجة الوعي في الكتابة (دراسات نقدية)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1980، ص 33.

³ ينظر: عبد السلام المسدي، المصدر السابق، ص 26.

و قد وضع "المسدي" هذا الجدل النظري، بذكره لمجموعة من الظواهر التي قد تكون موضع جدل عند مناقشتها، من حيث: تحديد وظيفتها لبنيتها، أو تحديد بنيتها لوظيفتها، وقد تدرج "المسدي" في ذكره لهذه الظواهر و مناقشته لها، من البسيط إلى المعقد إلى الأكثر تعقيدا؛ حيث بدأ بذكر المحسوس منها، فالمجرد، و انتهى إلى النص الأدبي.

و الملاحظ على طريقة مناقشة "المسدي" لمسألة البنية و الوظيفة و أيهما محدد للآخر في الظواهر المحسوسة، هو أنه ناقشها عند شخصين مختلفين جوهريا؛ أحدهما هو صانع الظاهرة و الآخر هو متلقيها، و بديهي في هذا الأمر أن صانع الكرسي مثلا - هو المثال الذي جاء به المسدي - تكون وظيفة الكرسي عنده سابقة على بنيته، وبالتالي فهي المحددة لها، أما إذا تعلق الأمر بالناظر إلى الكرسي في وجوده الهيكلي، فإن بنيته - وهي أول شيء يصادفه - هي من تحدد وظيفة الكرسي عنده، و بالتالي فالأمر نسبي، يختلف عند صانع الظاهرة عنه عند متلقيها، كما تم التوضيح، فأين الصعوبة في هذا الأمر؟

كان هذا بخصوص الظواهر المحسوسة التي ناقشها "المسدي"، أما بخصوص المجردة، فقد ذكر العديد من الأمثلة عنها، و من بينها قانون الميراث و المجتمع، و قد كان تساؤله حوله كالتالي¹: أي الطرفين كان سببا للآخر: هل قانون الميراث في المجتمع الإسلامي جاء نتيجة طبيعية لنمط المجتمع الذي انبث فيه؟ أم جاء سببا غايته إرساء نمط معين من التكافل الاقتصادي الذي يحفظ توازنا مضبوطا يقوم على الاسترسال؟

إن الشيء الملاحظ في مناقشة "المسدي" هنا، هو فحوى تساؤله و مدى علاقته بالمسألة التي يعالجها بواسطته؛ فهو من خلال هذا التساؤل، يبدو و كأنه يستفهم عن ظروف تكوّن قانون الميراث في ذهن صانعه و واضعه؛ هل جاء به صانعه لتحقيق هدف ارتسمه هو؟ أم أنه جاء به تماشيا مع وضع معين؟ و ربما كان الأولى هو التعبير عن الحيرة المتمثلة في أن: القارئ لهذا الميراث يجد أن بنيته عندما يدرسها هي المحددة لوظيفته المتمثلة في تكوين مجتمع بطبيعة معينة، تتميز بالتكافل والتضامن، لكن إذا تعلق الأمر بوضع قانون الميراث، فإن وظيفة قانون الميراث هي المحددة لبنيته بالنسبة له و ليس العكس.

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 27.

و عن مناقشة "المسدي" لمسألة البنية و الوظيفة في النص الأدبي و أيهما يعد محددًا للآخر؛ باعتبار أن القارئ قد يدرس أحيانا بنية النص انطلاقًا من معنى معين يكون قد ارتسم في ذهنه عند قرائته له، بشكل ينتج عنه أن معنى أو وظيفة النص هي المحددة لبنيته، فإن ما يمكن قوله في هذا الشأن، هو أنه مادام المعنى الذي تمت دراسة بنية النص انطلاقًا منه، لم يتم استخراجها من سياق خارجي عنه، و إنما كان نتاج استقراء عام وظاهري لبنيته، فإن البنية تبقى هي المحددة لمضمون النص الأدبي مع الدراسة البنيوية.

د- موقف "المسدي" من منطق البنيوية في بعدها الفلسفي:

يظهر "المسدي" موافقا للبنيوية في منطلقها الفلسفي، نظرا لما تولد عنه -حسب رأيه- من نتائج إيجابية قام بإحصائها و توضيحها.

لقد رأى "المسدي" بأن اعتماد البنيوية على الموقع الافتراضي من الأشياء، و توسلها بالمسلك التقديري في تحليل الظواهر، و لدّ غزارة جديدة لم تعرفها المناهج الأخرى؛ ذلك أن البنيوية قد اهتمت بكل الظواهر المتصلة بالنشاط السلوكي، و بكل التجليات الخاصة بالنشاط الفكري، ثم إنها في هذا و ذلك قد انكبت على الإنسان و هو فرد، و على الإنسان وهو مجتمع، و كانت حصيلة التقاطع بين كل هذه المرتكزات أن تجرّدت البنيوية نتاجا ذهنيا خالصا، إذا ابتداءً بالجزء حوّلته بمجرد فحص علاقته بنظائره إلى الكل المتماسك، و إذا ابتداءً بالمجموع لم يفككه إلى أجزاء إلا في ضوء سلك رابط حتى لا يتناثر العقد المنظوم¹.

و هكذا تسنى للبنيوية -حسب رأي المسدي- أن تتعامل مع الواقع باعتبار الصور المشتقة منه، و هو ما سمح لها بتوليد الظواهر بعضها من بعض، إنطلاقًا من جدلية العلاقات التي إذا تغيرت بين الأجزاء المعينة، خلقت واقعا جديدا يختلف عن الواقع الذي تتركب من نفس تلك الأجزاء عندما ترابطت على صورة أخرى. و جدلية العلاقات هذه قفزت بالبنيوية -حسب رأي المسدي- قفزات نوعية باهرة؛ فمن مجرد رياضة ترتيبية -شأن ما يحصل في لعبة المكعبات- انتقلت الفكرى البنيوية إلى جهاز تنظيري لا يقف عند الحدود المعهودة، فإذا بها تتطابق مع سلطان العقل الآلي، و هل لهذه الآلة العجيبة من قدرة أعظم

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 27-28.

من قدرتها على ترتيب المعطيات وفقا لنظام معين ثم إعادة ترتيبها مجددا بما قد لا ينتهي...¹.

هـ - الإنسان و موقعه في الفلسفة البنيوية: تحدث "المسدي" عن موقع الإنسان في الفلسفة البنيوية من جهة، و عن موقعه في غيرها من الفلسفات من جهة أخرى، مفسراً ومعللاً وجهة نظره في ذلك.

و مفاد ما جاء به في هذا الشأن، يتمثل في أن: الإنسان لم يكن لب و جوهر الفلسفات السابقة على البنيوية، لأنها -حسب رأيه- كانت دائما تنطلق من شيء ما هو واقع خارجها، لتنتهي إلى شيء ما يتجاوز حدوده، بعد أن تكون قد غاصت في عالم الوجود عبره، وبالتالي فقد كان الإنسان في ذاته دوما واسطة العقد في القلق الفلسفي، دون أن يكون علة وجوده ولا غاية مطافه².

أما الفلسفة البنيوية فيرى "المسدي" بأن الإنسان قد كان موضوعها بشكل أساسي ورئيس؛ حيث أنها أخرجته من التوسط الرتيب الذي عرفه مع غيرها من الفلسفات، وذلك بعمليتين متكاملتين؛ أولهما: عزلها له عن الأشياء؛ إذ لم تعد تتخذ مرجعا أوليا في استقراء الظواهر، وثانيهما: اعتبارها له أنه حكم عليها باستنباطه لبنائها، ثم إن أخصب الحقول في التحليل البنيوي هي الحقول الأشد اقترانا بالكائن البشري، بدءا باللغة و علم النفس ومرورا بالأدب و الفن و علم الاجتماع البشري³.

و إذا كان "المسدي" يرى بأن الإنسان حاضر و فاعل في الفلسفة البنيوية، فإن هناك من الباحثين من ذهب إلى أن الإنسان غير موجود في الفلسفة البنيوية، بل هناك من اعتبر أن البنيوية هي فلسفة موت الإنسان، نظرا لأن القارئ الباحث في استنباطه لبنى الظواهر واستخراجه للقوانين التي تحكمها يكون خاضعا للظاهرة في حد ذاتها، و من أمثلة هؤلاء الباحثين، هناك "فاضل ثامر"؛ حيث قال عند توضيحه لمدى فاعلية القارئ البنيوي في دراسته للنص الأدبي أن: ((دور القارئ في المنهج البنيوي خاضع كليا لسلطة النص ذاته؛

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص28.

² ينظر: نفسه، ص 28-29.

³ ينظر: نفسه، ص29.

فنوايا القارئ و أفكاره وخبرته، و كذلك نوايا مبدع النص ذاته لا قيمة لها، و القراءة الإبداعية هي القراءة التي تسعى للكشف عن المكونات البنيوية و الأنساق الداخلية للنص¹.
و يقول "عمر محمد طالب" مجملا أهم ما أخذت عليه البنيوية من قبل الدارسين والباحثين، أن: ((نظرة البنيوية السكونية إلى الإنسان و إلى التاريخ تعد من أبرز القضايا التي ركز عليها نقاد البنيوية خصوصا))².

و- موقع البنيوية في الفكر العربي على الصعيد الفلسفي:

يرى "المسدي" بأن البنيوية في عمقها الفلسفي كانت بالنسبة إلى الفكر العربي كالضيف الغريب، مرة ينسجم و مرة يبدي النشاز، و أن الفكر العربي قد عرف حيرة كبيرة معها³؛ حيث احتل مكانا وسطا بين مغرباتها من جهة، و مزعجاتها بالنسبة له من جهة أخرى، وذلك في علاقة هذه المغربيات و تلك المزعجات بين ما يمتلكه من ناحية، و ما يريد الوصول إليه من ناحية أخرى.

إن ما يمتلكه الفكر العربي هو ميراث فكري يتميّز بحالة من السكون و من ثم طواعية الانبناء؛ و المقصود بحالة السكون هنا هو استقرار الفكر العربي على جملة من الموثوقات المتواصلة، و بذلك فهو ينسجم تماما مع الفلسفة البنيوية، لكن ما ينشده يتنافى معها تنافيا تاما؛ ذلك أن ما يريد الفكر العربي الوصول إليه و يطمح إلى تحقيقه يتمثل في تحويل الاستقرار الذي يعرفه إلى حركة تقفز أمام أحداث الزمن؛ بحيث تستبقي من الماضي قيمه، و تصنع للحاضر و للمستقبل إجراءات تاريخية غير التي غمرت تاريخه⁴.

و باختصار فالفكر العربي -كما رأى المسدي- يعيش منذ فجر نهضته عقدة التاريخ والصرورة؛ بين ماض يتراءى ساكنا، و حاضر يندفع بقوة إلى الأمام، و وفق الفلسفة العربية الراهنة، إن هو التفت إلى الماضي منطلقا من الحاضر اعتبر ماضيه تاريخا، و إن انطلق من الحاضر ليستقر منهجيا في قلب الماضي يكون قد دخل بذلك منطقة اللاتاريخ⁵.

¹ فاضل ثامر، اللغة الثانية (في إشكالية المنهج و النظرية و المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث)، ص45.

² عمر محمد الطالب، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار السير، المغرب، ط1، 1988، ص217.

³ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص30.

⁴ ينظر: نفسه، ص30.

⁵ ينظر: نفسه، ص30.

كان هذا بخصوص تحديد موقع الفلسفة البنيوية في الفكر العربي و أسباب حلولها فيه، أما فيما يتعلق بمدى تفعيل و اغتنام الفكر العربي لها، فإنه كان ذو شأن غريب معها - على حد تعبير المسدي- نظرا لأن المنتصرين لها لم يعملوا على ابتعاث نسق فلسفي بنيوي يمكن وسمه بسمة العربي في قواعده النظرية، و لم يبقوا في دائرة الفضاء الفلسفي غير العربي، و لم يفسروا انسحابهم منه¹.

ي- مدى وعي كل من الفكرين العربي و الغربي بمقومات البعد الفلسفي للبنيوية في خلفياته التأسيسية:

إن الحقائق السابقة التي قام "المسدي" بفحصها، قد انحجبت -حسب رأيه- عن كلا الفكرين العربي و الغربي، لكن نتائج انحجابها قد اختلفت عند الواحد منهما عن الآخر؛ ذلك أن انحجابها عن الفكر الغربي وُلد ضربا من الاشتباه رافق الطفرة البنيوية فيه لا أكثر، أما انحجابها عن الفكر العربي فقد وُلد التباسات تراكم بعضها على بعض فلم يتسع الوعي الفكري العربي للبعد الفلسفي للبنيوية اتساعا نقديا². و من هنا تظهر أهمية ما أورده "المسدي" في معالجته للبنيوية في بعدها الفلسفي إن صح تقديره فيما ذهب إليه.

¹ ينظر: عيد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص29.

² ينظر: نفسه، ص29.

ثانيا: البعد المعرفي للبنيوية

لمّا كانت البنيوية تستند إلى مواقف نوعية حيال المعرفة، و تنطلق من مصادرات متميّزة تُجاه أصول العلم، فقد أراد "المسدي" الوقوف على الظاهرة البنيوية في خباياها الأصولية، من أجل استنباط ما يختص به هذا البعد المعرفي فيها¹. و قد تناول "المسدي" البنيوية في بعدها المعرفي من خلال النقاط التالية: مفهوم البعد المعرفي، كيفية تولد البعد المعرفي للبنيوية من البعد الفلسفي لها، المواقف المعرفية التي بلورتها الفلسفة البنيوية، كيفية تعامل الفكر العربي مع الفلسفة البنيوية في أعماقها النظرية. و هذا بيان موجز لما ورد فيها.

أ- مفهوم البعد المعرفي:

يرى "المسدي" بأن البعد الفلسفي يُحتمّ بعدا معرفيا بالمعنى الذي يشمل في الوقت نفسه ((أسس نقد المعرفة المتصلة بفرع معين من فروع النشاط الذهني، و قواعد نظرية المعرفة عامة، و من حصيلة هذين الوجهين تتبثق القيمة الأصولية بالمعنى "الإبيستيمولوجي" الذي هو بحث نقدي في أصول النظرية الفلسفية))².

ب- كيفية تولد البعد المعرفي للبنيوية من البعد الفلسفي لها:

وعن كيفية تولد البعد المعرفي للبنيوية من البعد الفلسفي لها، فقد قال "المسدي" أن: ((أي بعد فلسفي لا يفتأ يصاحب موقفا من المواقف أو فكرة من الفكر، إلا و هو محدث بذلك تلويحا جديدا على لوحة المقاييس النظرية المتصلة بخصائص الإدراك))³؛ معنى ذلك أن البنيوية لما صاحبت في بعدها الفلسفي مواقف نوعية و أفكارا جديدة في معالجة الظواهر، فإنها بذلك قد قامت بتقديم وسائل و معايير جديدة تحكم عملية إدراك كنه الظواهر التي هي موضوع الدرس.

ج- المواقف المعرفية التي بلورتها الفلسفة البنيوية:

ذهب "المسدي" إلى أن البنيوية قد بلورت انطلاقا من مضمونها الفلسفي مواقف معرفية جديدة، و ذلك بتقديمها للجديد في موضوعات عدة، لعل أهمها ما يلي:

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 31.

² نفسه، ص 31.

³ نفسه، ص 31.

1- كيفية التعامل مع الظواهر: كشف "المسدي" عن الجديد الذي جاءت به الفلسفة البنيوية بخصوص كيفية التعامل مع الظواهر، ثم بيّن الموقف المعرفي الذي بلورته البنيوية انطلاقاً من هذا الجديد، و بعد ذلك قام بمناقشة موقفها المعرفي مبدياً رأيه فيه من حيث مدى جدواه و فاعليته.

1-1 جديد البنيوية في مقابل القديم السائد قبلها:

لقد كان السائد في طريقة التعامل مع الظواهر -حسب المسدي- هو أن استجلاءها انطلاقاً من معطياتها البادية ليس إلا مرحلة نحو اكتشاف مقوماتها الباطنية، و من ثم فقد كان الانتقال من مرحلة اكتشاف الظاهر إلى مرحلة اكتشاف الباطن من الظواهر أمراً حتمياً، مما نتج عنه أن كان الإدراك بمثابة السيطرة الكلية ذات الموقف المتفرد¹.

أما البنيوية فقد ميّزت - حسب المسدي- درجات التعامل مع الظواهر، و معها صار إدراك الظواهر في ظاهرها منفصلاً عن إدراكها في باطنها؛ إذ لم تعد هناك حتمية للانتقال من مرحلة الإدراك الأولى إلى مرحلة الإدراك الثانية، و عليه لم يعد هنالك إدراك كلي شامل، بل صار من الممكن أن يتواجد إدراك جزئي، قد يقتصر على الظاهر أو على الباطن من الشيء، و ذلك استناداً إلى أن المخفي من الشيء هو بنيته، و أن القوانين التي تحكم هذه البنية قد تتجلى على السطح و قد تظل متوارية، لا يستتبها إلا إدراك نوعي يخرج عن الإدراك المألوف؛ حيث أن الإدراك النوعي يختص بالباطني من الشيء، أما المألوف فلا يطال إلا الظاهري منه².

و قد بيّن "المسدي" ما ذهبت إليه البنيوية في كيفية التعامل مع الظواهر، بموقف الإنسان من الظاهرة اللغوية، من حيث إدراكها لها على المستويين الظاهري و الباطني؛ وقد مثل أولاً بتعامل الإنسان مع اللغة الأمة بالنسبة له، ثم بتعامله مع اللغة الأجنبية عنه، ومفاد ما جاء به في هذا الشأن، هو أن: الإنسان في تعامله مع لغته الأم قد يقضي عمره كاملاً وهو يستعملها و يتواصل بها مع غيره ممن هم من أصحابها أو المنقنين لها دون أن يكون على علم بالقوانين التي تحكمها، و هو في هذه الحالة يدركها في ظاهرها فقط دون باطنها، وعلى العكس مع اللغة الأجنبية عنه، فقد يدرك جل القواعد التي تتحكم فيها، دون أن يمتلك

¹ ينظر: عيد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 31.

² ينظر: نفسه، ص 31.

ناصيتها؛ بمعنى دون أن يستطيع التواصل بها مع غيره ممن هم من أهلها أو المتقنين لها، و هو في هذه الحالة يدرك اللغة في باطنها فقط دون أن يدركها في ظاهرها. و في كلتا الحالتين السابقتين لم يكن هناك عامل حتمي للانتقال من الموقف الإدراكي الأول إلى الموقف الإدراكي الثاني¹.

و من خلال هذا التمثيل الذي قدّمه "المسدي" من أجل توضيح جديد البنيوية، فإنه يظهر موافقا لها مقتنعا بفكرتها.

1-2 الموقف المعرفي الذي بلورته البنيوية:

خُص "المسدي" بعد تحليله السابق إلى أن البنيوية قد ارتأت في تحاورها الجدلي الدائم مع الظواهر سلما قيميا درجاته مرصوفة كالتالي²:

- الأشياء كما هي لها وجودها النوعي، و هو وجود يكاد ينفصل عن الإدراك المباشر.
- الأشياء لها وجود يطابق الصورة التي تدرك عليها، و هذا الوجود يأتي في المرتبة الثانية، لأن الصورة التي تدرك وفقها الأشياء قد تختلف من شخص لآخر، كما تختلف عند الشخص الواحد من موقع مكاني لآخر و من ظرف زمني لآخر.
- الأشياء لها وجود آخر -عدا الوجودين السابقين- و هو وجود يطابق الصورة التي تتطبع حولها في ذهن الإنسان انطلاقا من تلقية لتعبيرات الآخرين عنها؛ ذلك أنه مهما اشتد الحرص عند صاحب التعبير على أن تكون لغته شفافة و دقيقة، بحيث تنقل بأمانة ما شكله من تصور بخصوصها، فإنها و لابد تفقد هاتين الخاصيتين بمجرد انسيابها على لسانه، الأمر الذي يجعل هذه الأشياء المُعبَّر عنها من طرفه، تكتسب صورة جديدة مختلفة عن التي في ذهنه، و هذه الصورة تختلف عند المتلقي الواحد باختلاف الأوصاف اللغوية التي تأتيه من قِبَل باحثين متعددين، و حتى من قِبَل باحث واحد باختلاف الظروف المحيطة التي يتلقى فيها هذا التعبير.

و يجمل "عبد العزيز السمري" ما سبق ذكره بخصوص جديد البنيوية في كيفية الإدراك، في قوله: ((لقد توصلت البنيوية في مختلف ميادينها إلى عدّة نتائج أهمها: أن الإدراك لا

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 32.

² ينظر: نفسه، ص 32-33.

ينعزل عمّا يَنمُّ إدراكه، بل إنّ هناك علاقة وثيقة بين مادة الإدراك و الإدراك ذاته و الذات المُدرّكة الفاعلة و الوسيط الذي يهيّء هذه العملية (أي اللغة) ¹.

و انطلاقاً مما سبق، انتهى "المسدي" إلى أن خصوصية الموقف المعرفي الذي بلورته الفلسفة البنيوية في طيات عملها التنظيري يتمثل في اعتبار أن: قيمة الوجود لدى الإنسان تتحدد بالعملية الإدراكية في مضمونها و في الحثثيات الملازمة لها، و أن هذه العملية الإدراكية التي مدارها الفهم تتحدد جوهرياً باكتشاف البنية ما ظهر منها و ما خفي ². و في هذا السياق أكد "المسدي": حضور الإنسان بل و محوريته في الفلسفة البنيوية، نظراً لكونه هو المستتب لحقائق الظواهر في تجليها كما في انحجابها أولاً، بالإضافة إلى أنه المالك لأدوات التعبير عما يستخرجه من خصائص الأشياء ثانياً ³.

و قد رأى "عبد العزيز حمودة" غير الذي رآه "المسدي" بخصوص فاعلية الإنسان في الفلسفة البنيوية؛ حيث قال عند حديثه عن تعامل الناقد مع الظاهرة الأدبية: ((إن تركيز المشروع البنيوي على النظر في القوانين و الأنساق الداخلية للنص الأدبي، يمثل جبرية تنفي قدرة الذات على تأكيد نفسها، و إذا كانت هناك ذات يُعبّر عنها أصلاً فهي ليست الذات الديكارتية الحرة، بل الذات التي تحددها اللغة و تحكم حركتها، فاللغة عند البنيويين تصبح المكوّن السببي للذات، و في نفس الوقت، تحل محلّ البنية الاقتصادية التحتية التي تفسّر الأدب و الظواهر الاجتماعية في نفس الوقت)) ⁴؛ بمعنى أن الناقد في إدراكه لكنه الظاهرة الأدبية و استتباطه لحقائقها يكون مقيّداً بها هي في ذاتها، و بالتالي فلا حرية و لا فاعلية لديه حسب رأي "عبد العزيز حمودة".

1-3 مناقشة "المسدي" للموقف المعرفي الجديد الذي بلورته البنيوية:

ناقش "المسدي" جديد البنيوية السابق، المتعلّق بعملية الإدراك، بطرحه تساؤلاً حول: القيمة المرجعية للنموذج التفسيري الذي طرحه المنهج البنيوي على الصعيد المعرفي، نظراً لارتباط قيمة الواقع فيه بالصورة التي ترتسم في ذهن الناظر إليه، من خلال العملية

¹ عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، ص190.

² ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص33.

³ ينظر: نفسه، ص33.

⁴ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والأداب، الكويت، ع: 232، يناير 1978، ص163.

الإدراكية التي ترتبط بدورها بقرائن الظرف الذي تحصل فيه¹؟ و "المسدي" في مناقشته لهذا التساؤل، قام أولاً بعرض: مفهوم القراءة من المنظور البنيوي بين منطلقها و غايتها، ثم بحث في مشروعية منطلقها من جهة، و إمكانية تحقيقها لهدفها من جهة أخرى.

إن عملية القراءة البنيوية -حسب المسدي- تهدف إلى ((إقامة نسيج منطقي، لا من خلال منطلق يقيني، بل من خلال منطلق افتراضي، يفترض وجود منطق داخلي يقع تكريس المنهج عند المقاربة التطبيقية لاستقرائه بالتدرج))².

لقد ناقش "المسدي" مدى إمكانية تحقيق القراءة البنيوية لهدفها، عبر مرحلتين اثنتين؛ أولاً: مناقشة مدى إمكانية تحقيقها لهدفها بصفة عامة أي بافتراض عام، و ثانياً: مناقشة مدى إمكانية تحقيقها لهدفها بصفة خاصة خصوصية الافتراض الذي انطلقت منه.

وقد أقرّ "المسدي" في بداية المرحلة الأولى إمكانية الافتراض في الدراسات العلمية عموماً، و ذلك عندما قال بجواز استناد بعض الحقائق المعرفية إلى محض افتراض لا أكثر³، و بعد هذا أقر بإمكانية إقامة نسيج منطقي انطلاقاً من افتراض لا من يقين؛ حيث ذكر بعض الحقائق المعرفية التي تم تقييدها في علم الرياضيات، و كان علم الرياضيات انطلاقاً منها علماً منطقياً دقيقاً، و من أمثلة الحقائق التي ذكرها، أن: رفع أي عدد إلى قوة الصفر يفضي إلى العدد واحد، و أن قسمة الصفر على عدد صحيح ناتج صفر، و أن قسمة عدد على الصفر نتيجته غير محدّدة، بالإضافة إلى أن رفع الصفر إلى القوة صفر نتائجه غير محدّدة أيضاً⁴. و انطلاقاً من هذه الأمثلة أثبت "المسدي" أن ((تقرير بعض الحقائق في المعرفة يجوز أن يستند إلى محض الافتراض و أن يفضي إلى ترتيب صوري مطلق))⁵، ما معناه أن ((المعرفة العينية في حقل علم من العلوم يمكن أن تفضي إلى بناء صوري يعتمد الافتراض المطلق، و يكون برغم انبثاته عن الحقيقة الإجرائية ذا ارتباط منطقي ينسجم ضمن نسيج المعقولات المعرفية))⁶.

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص33.

² نفسه، ص33.

³ ينظر: نفسه، ص33.

⁴ ينظر: نفسه، ص33-34.

⁵ نفسه، ص33.

⁶ نفسه، ص34.

كان هذا بخصوص المرحلة الأولى، أما فيما يتعلق بالمرحلة الثانية، فقد وضح فيها "المسدي" الافتراض الذي قامت عليه البنيوية عموماً، و قال بأنه يتمثل في ((مفهوم البنية المتماسكة التي تؤول إلى مقولة النظام))¹، و قد بيّن "صلاح فضل" كيفية مجيء سوسير بهذا الافتراض: حيث قال بأن سوسير: ((يقول: "لو تصورنا مثلاً قطارين سريعين كل منهما يخرج من جنيف و يصل إلى باريس في الساعة الثانية و 45 دقيقة مساءً، و الثاني يخرج بعد الأول بأربع و عشرين ساعة بالضبط، فنحن نقول إنّه نفس القطار، بالرغم من أنّه يكون مختلفاً عنه في كل شيء: في القاطرة و العربات و الموظفين، فما معنى أن تقول إنه هو نفس القطار؟ و لنفترض أن شارعاً في مدينة ما قد دُمّر بأكمله أثناء الحرب ثم أُعيد بناؤه من جديد، نقول إنّه نفس الشارع، مع أنه لم يتبق فيه شيء مادي من الأول، لماذا يمكن أن نعيد بناء شارع بأكمله و يظل هو نفس الشارع؟ لشيء بسيط و هو أن ما يحدّد الشارع ليست هي العناصر المادية البحتة، و إنّما موقعه من الشوارع الأخرى و المكان الذي يقوم عليه، و كذلك فإن ما كان يحدد القطار، إنّما هو ساعة قيامه و المحطات التي يمر بها إلى آخره، و كلما توافرت نفس الشروط، و قامت مثل تلك العلاقات حصلنا على نفس الأشياء، هي أشياء ليست مجردة، و لا يمكن تصورها بعيداً عن تنفيذها المادي"، فما يحتفظ بشخصية الأشياء إذن: إنّما هو النموذج الذي يخضع له، و هو نموذج يطابق بنية معينة، يعتمد تحديدها على رصد العلاقات المكونة لها))².

و قد رأى "المسدي" بأن هذه النظرية: تشكلت تشكلاً مستقراً في مجال المحسوسات، أما في مجال المجردات فقد ظلت على غاية من النسبية³؛ بقدر نسبية الأخذ بها في دراسة الظواهر المنتمية إلى هذا المجال، و قد دلّل على ذلك بمثال من المجردات يخص الظاهرة اللغوية؛ حيث قال بأنه: لا توجد فيها بنية متماسكة تسمح بالبحث عن النظام الذي يحكمها، و ذلك لأن الكلام لا يقع إنجازه إلا بالتعاقب الزمني، و أن شيئاً منه لا يحدث إلا بانقضاء ما قبله، و من ثم فإن اللغة في أبسط إنجازاتها ما هي إلا سلسلة من الانقضاءات، بحيث لا يصح فيها الحديث عن بنية قائمة التماسك على منوال تماسك البناء المعماري⁴.

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص34.

² صلاح فضل، نظرية البنائية (في النقد الأدبي)، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1993، ص28.

³ ينظر: عبد السلام المسدي، المصدر السابق، ص34.

⁴ ينظر: نفسه، ص34.

و بعد هذا، خلّص "المسدي" إلى أن القضية محل الدراسة إنما ((منبعها تقرير الحقائق المعرفية انطلاقاً من الصور الافتراضية، بعد أن تكون تلك الافتراضات قد استندت إلى وقائع تجريبية تحلت باليقين))¹، و قد رأى بأن ((لكل ذلك شرعته في فلسفة العلوم))².

2- مقياس عقل العقل للأشياء:

بالإضافة إلى جديد البنيوية السابق، رأى "المسدي" بأن البنيوية قد ولّدت ضابطاً معرفياً جديداً يتعلق بمقياس عقل العقل للأشياء؛ أي بوسيلة إدراك العقل للأشياء، و قد قام بالكشف عن هذا الجديد، مع توضيح الموقف المعرفي الذي بلورته البنيوية انطلاقاً منه.

2-1 جديد البنيوية في مقابل السائد قبلها:

لقد كان من المسلمات قبل البنيوية -حسب المسدي- أن تحصيل المعرفة يحكمها منطق النظام، و أن ارتباك النظام هو عامل اختلال في سبل المعرفة، لكن البنيوية جاءت فيما بعد بمنطق ضديد، هو منطق الفوضى؛ حيث رأت بأن تحصيل المعرفة يتم انطلاقاً منه و بحضوره³.

و قد وضح "المسدي" جديد البنيوية هذا، بمثال يخص الوعي بالعناصر التركيبية لسنفونية ما؛ حيث رأى بأن هذا الوعي لا يتأتى في حال انسجام العناصر الموسيقية انسجاماً تاماً و انسياب اللحن تبعاً لذلك في أروع صوره، لأن العناصر التركيبية للسنفونية و هي بهذه الحالة، تكون منصهرة في بوتقة التناسق فلا يُميّز بينها، أما في حال اعترى السينفونية نشاز ما، فإن سامعها يتمكن من معرفة العناصر المكونة لها. وبالتالي فإن الوعي في حال اختلال النظام؛ أي في حال الفوضى، أيسر بكثير من الوعي في حال تحققه، و هو أمر يصدق -حسب رأي المسدي- على كل إنجاز يقتضي انصهار الأجزاء في بوتقة التناسق، كالمثال السابق الذكر⁴.

إن "المسدي" و من خلال تمثيله هذا، يبدو موافقاً للبنيوية في جديدها الذي جاءت به بخصوص مقياس عقل العقل للأشياء، و إن حصر موافقته في ظواهر ذات طبيعة معينة، كما سبق الذكر.

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 34.

² نفسه، ص 34.

³ ينظر: نفسه، ص 35.

⁴ ينظر: نفسه، ص 35.

2-2 الموقف المعرفي الذي بلورته البنيوية:

لما رأت البنيوية بأن كثافة الوعي بالشيء تضعف بتواتر حضوره أي بكثرة حضوره، وتزداد بغيابه، فقد اندرج ضمن القيم المعرفية الجديدة -حسب المسدي- الحديث عن اطراد حضور الأشياء و عن درجات غيابها، فأصبح الغائب هو الحكم على الحاضر، بعد أن كان الحكم الوحيد هو الحاضر على الغائب¹.

د- كيفية تعامل الفكر العربي مع الفلسفة البنيوية في أعماقها النظرية:

يرى "المسدي" بأن الأصولية العربية بالمعنى المعرفي المرتبط بنقد الفلسفة، لم تتصاهر و الأصولية البنيوية تصاهرا إجرائيا²، و السبب الرئيس في ذلك -حسب رأيه- يتعلق بما تتميز به الأصولية العربية في مقابل الأصولية البنيوية؛ فالأصولية العربية هي ((أصولية تثبيت؛ تبحث عن تأسيس المعرفة المتلقاة، و تسعى إلى تركيز الثوابت باستدلالات يمكنها أن تتبنى المتغيرات عبر التاريخ، أما الأصولية البنيوية فإنها أصولية تغيير لا يجرعها القفز على الثابت بغية بناء نسق جديد، و هي بذلك لا تعادي الموروث من المعارف و لكنها لا تلتزم سلفا بشيء من ذلك؛ إذ لا تدين بسلطة المحظورات))³.

و قد عبّر "المسدي" عن رأيه حول مدى واقعية هذا التنافر بين الأصوليتين العربية والبنيوية، و ذلك في سياق توضيحه لأسباب التنافر بينهما؛ حيث قال أنه قد ((انضاف نتوء آخر بين الفكر العربي و البنيوية، ما كان يسيرا على رواد الحداثة المنهجية أن يتخطوه أو أن يعينوا غيرهم على تخطيه، و طبيعي أن نفهم كيف يتنافر فكر دأب على أن يرد المتغيرات إلى الثوابت و فكر همه أن يسلك الثوابت في قوالب المتغيرات))⁴.

من خلال هذا القول يظهر "المسدي" متفهما للنفور الحاصل بين الأصوليتين العربية والبنيوية، و مقتنعا به تمام الاقتناع، لكن لا بد من الإشارة إلى دعوته الضمنية للقارئ العربي المتخصص لكي يتجاوز هذا النفور، و هذه الدعوة تظهر عندما قال بأن هذا النتوء الحاصل ((لم يكن يسيرا على رواد الحداثة المنهجية أن يتخطوه)) فتخطي هذا النفور

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص35.

² ينظر: نفسه، ص36.

³ نفسه، ص35-36.

⁴ نفسه، ص36.

-حسب ما يبدو- أمر صعب من وجهة نظر "المسدي" لكنه ليس مرفوضا أو مستهجنا من جهته.

ثالثاً: البعد المذهبي للبنيوية

تناول "المسدي" البنيوية في بعدها المذهبي، و هدفه الأساسي من ذلك هو: الوقوف على المحركات المبدئية لمخاضها المذهبي¹. و قد عرض لها هنا من خلال النقاط التالية: مفهوم البعد المذهبي، عوامل و أسباب تشكل بعد مذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي الغربي، البنيوية في بعدها المذهبي بين مؤيديها و معارضيها في المناخ الثقافي الغربي، رد فعل حركة الفكر البنيوي و قد تسابق البعض بها نحو تحقيق الغلبة المذهبية، نتائج التوظيف المذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي الغربي، عوامل و أسباب تشكل بعد مذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي العربي، البنيوية في بعدها المذهبي بين مؤيديها و معارضيها في المناخ الثقافي العربي، نتائج التوظيف المذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي العربي، تقييم "المسدي" لموقف الفكر العربي من البنيوية و موقفه منها. وفيما يلي تفصيل لما ورد فيها.

أ- مفهوم البعد المذهبي:

استخدم "المسدي" مصطلح البعد (المذهبي) كبديل لـ: البعد (الإيديولوجي)²، و قال بأنه ((يطابق من الناحية العلمية، تجاوز النظرية العلمية في شمولها المعرفي، لتوظيفها بما يخرج عن مناظ العلم الذي تتدرج فيه))³. و هو ما ذهب إليه "الطيب دبه" حين فرّق بين البنيوية باعتبارها منهجاً، و باعتبارها مذهباً؛ حيث قال: ((ينبغي التمييز في البنيوية بين صفتها من حيث هي منهج، و صفتها من حيث هي مذهب فلسفي عام؛ أما من حيث هي منهج فيراد بها تلك المفاهيم والأدوات الإجرائية التي يُستعان بها لمعرفة خصائص و قوانين البناء النموذجي الكامن وراء الظواهر الطبيعية، و هذا المنهج لا أصل له إلا في صورته اللسانية الخالصة عند دي سوسير و أتباعه. أما من حيث هي مذهب فلسفي، فهي تعني مجموعة من التصورات الفكرية تتبنى أسس المنهج العلمي التجريبي، و تقوم على رؤية فلسفية تتوخى مبدأ الكلية و الشمولية في النظر إلى ظواهر الوجود، مستندة إلى مظاهر الإدراك العقلي في اكتشاف بناها الصورية ضمن تجلياتها الخلافية و التقابلية. و من هنا فإن البنيوية من

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص40.

² ينظر: نفسه، ص38.

³ نفسه، ص38.

حيث هي مذهب فلسفي، لا تخص اللسانيات وحدها، إنما هي دُولة بين سائر مجالات البحث في العلوم الاجتماعية¹.

ب- عوامل و أسباب تشكل بعد مذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي الغربي:

يرى "المسدي" بأن البعد المذهبي للبنيوية انبثق من بعديها الفلسفي والمعرفي². و قد قام بتلخيص أسباب تشكل بعد مذهبي للبنيوية ودخولها بذلك حلبة الصراع المذهبي في أربع نقاط، انتقل فيها من السبب العام إلى الخاص فالأخص فالأكثر خصوصية، وهذه الأسباب هي كالتالي³:

- توظيف مكونات الابتكارات الفكرية عبر تاريخ الإنسانية توظيفاً يخرجها عن مدارها الأولي.

- استفحال ظاهرة التوظيف المذهبي في عصر البنيوية، و خاصة بعد أن أصبحت النظرية الفلسفية فيه مولداً من مولدات الصراع المجتمعي، بل و سبباً مباشراً في تغيير نمط السلطة الاجتماعية عموماً. و معلوم أن الفلسفة البنيوية قد قدمت نفسها كفلسفة مضادة، تنتصب في موقع النقص أكثر من انتصابها على مسلك الاسترسال.

- الصراع الخفي نحو التفرد بالحدثة؛ ذلك أن نقطة العبور من البعد المعرفي إلى البعد المذهبي ترتبط أساساً بالبحث عن سلطة فكرية، حيث تتسلل هذه الأخيرة من نافذة تجاوز الأنماط السائدة و إرساء النمط البديل الذي يلغي الماضي ليدفع نحو المستقبل، و هذا هو مضمون الحدثة كما يصقلها المنزع الإيديولوجي.

- البذرة الأولى لهذا التوظيف المذهبي هو معارضة الطرح الذي جاء به البنيويون لمسلمات الفكر المادي.

وإذا كان "المسدي" يرى بأن البنيوية قد ظهرت في شكل مذهب أو إيديولوجيا تحت تأثير العوامل و الأسباب السابقة، فإن هناك من الباحثين و الدارسين من نفى تماماً إمكانية أن تكون البنيوية إيديولوجيا أو مذهب، و ذلك بسبب إهمالها للكائن البشري من وجهة نظرهم، و من بين هؤلاء "عز الدين اسماعيل"؛ حيث يقول: ((إن أيّ تفكير في الفن ينبع من

¹ الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية (دراسة تحليلية إستيمولوجية)، ص 45-46.

² ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 37.

³ ينظر: نفسه، ص 38-39.

إيديولوجيا بعينها، تأخذ الإنسان دائما في الاعتبار، لا الإنسان المطلق بل الإنسان الاجتماعي بوصفه فاعلا، سواء أكان منتجا أو مستقبلا، هذا التفكير لا يمكن أن يلغي فكرة القيمة بل على العكس، لا يجد مناصا من أن يسلم بها و يبحث عنها و يخضعها للحكم والتقدير. و من ثمّ تبدو المفارقة -بل المغالطة إن شئنا- فيما يُخامر بعض البنيويين من أن البنيوية ليست مجرد منهج في التفكير بل إيديولوجية، ذلك أن استبعاد الذات الفاعلة؛ أي الذات الإنسانية، يسقط الإنسان من المنظور و لا إيديولوجية بغير الإنسان))¹.

ج- البنيوية في بعدها المذهبي بين مؤيديها و معارضيها في المناخ الثقافي الغربي:

رأى "المسدي" أن البنيوية و بعد ظهورها في شكل مذهب قد ((وجدت نفسها بين مدين يتجادبان المهتمين بها من معترضين و منتصرين، و في كل مد مبالغات هي إلى المجازفة بالظن أقرب منها إلى الاعتدال في المعرفة))²؛ معنى ذلك أن البنيوية قد شكّل حولها اعتقادان اثنان -عندما تسابق البعض بها نحو تحقيق الغلبة المذهبية- و هما اعتقادان غير صائبين من وجهة نظر المسدي، لأنهما لم يصدرا عن استيعاب علمي لها بكل معطياتها، وإنما صدرا عن تأويلات لا علاقة لها بالواقع، و يتمثل هذان الاعتقادان في:

- أولا: الاعتقاد بأن البنيوية: ((جاءت تنقض الفلسفات القائمة مقدّمة بذلك البديل الشامل، حتى بات من المسلمات لدى بعضهم أن البنيوية قد تسللت بين الماركسية و الوجودية لتحسم الصراع القائم بين المدرستين))³؛ معنى ذلك، أنه ساد اعتقاد بأن البنيوية فلسفة في أصل نشأتها، و هذه الفلسفة جاءت بهدف الحسم في الصراع القائم بين الماركسية و الوجودية، و ذلك بتقديمها البديل الشامل الذي يغني عنهما. و يبدو أن "الطيب دبه" قد رأى في البنيوية شيئا من هذا القبيل؛ حيث قال عند حديثه عنها: ((ارتبطت البنيوية في أسسها الفلسفي العام بكثير من العلوم والياديين و النشاطات الفكرية المختلفة... و قد أدى ظهور البنيوية إلى انتشار رؤية فلسفية جديدة استطاعت -بفضل جدّتها و واقعيتها و حماس أنصارها وتوجهها العلماني- أن تكتسح مساحة كبيرة من مجال الفكر الفلسفي السائد، و أن

¹ عز الدين اسماعيل، مناهج النقد الأدبي بين المعيارية و الوصفية، فصول، القاهرة، مج:01، ع:02، جانفي1981، ص21-22. نقلا عن: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص126-127.

² عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص39.

³ نفسه، ص39.

تُحدث تحولا ثوريا كبيرا في المنظور العام لكثير من العلوم و الآراء و المذاهب السياسية والاجتماعية، و أن تصبح منافسا قويا لبعض الإيديولوجيات و المذاهب الفكرية و الفلسفية، مثل المذهب الوجودي...و المذهب الماركسي))¹ وهذا ما نفاه "المسدي" عند دراسته للبعد التكوني للبنيوية.

- ثانيا: الاعتقاد بأن الفكر البنيوي: يستمد قوته من توسطه بين مثالية الفلسفات المجردة و نمطية الفلسفات المادية؛ إذ تحرص البنيوية على الإقرار بعلمية المعرفة دون أن تنحبس في معادلة الجدلية المادية²، وبالمقابل فقد: شكك معارضو الفكر البنيوي -حسب ما جاء به المسدي- في هذا الطرح، متعللين في ذلك بالقيمة النسبية في كل منهج، باعتبار أن المعيار الأوفق هو اطراد الانسجام بين نتائج البحث و وسائله³.

د- رد فعل حركة الفكر البنيوي و قد تسابق البعض بها نحو تحقيق الغلبة المذهبية:

إن مفاد ما جاء به "المسدي" بخصوص رد فعل حركة الفكر البنيوي و قد تسابق البعض به نحو تحقيق الغلبة المذهبية، هو إيغاله في البحث عن توازن بين الأضداد، وذلك بفعلين اثنين⁴:

- إنجاز قراءة بنيوية لمخزون الفكر المادي.
- استحداث مسلك تكويني في المنهج البنيوي، كان من نتائجه انقسام البنيوية إلى ضربين؛ ضرب يأخذ بالبنيوية في أصل تكونها، و قد اتصف بالبنيوية التكوينية، وضرب يقف بالبنيوية عند حدود صورتها القائمة، و قد اتصف تبعا لذلك بالبنيوية الشكلانية، و هذا الوصف جرى بريئا أول الأمر، ثم ما فتئ أن تلبس بشحنة من التهجين عندما تلقفه المعترضون في خضمّ الحماسة المذهبية؛ حيث نشأت من البنيوية بنيويتان: إحداهما تحاول الاندراج في الزمان و المكان، و الأخرى كأثما تتفلت عنهما انفلاتا.

¹ الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية (دراسة تحليلية إبستيمولوجية)، ص45-46.

² ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص40.

³ ينظر: نفسه، ص40.

⁴ ينظر: نفسه، ص40.

هـ- نتائج التوظيف المذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي الغربي:

إن التوظيف المذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي الغربي -حسب المسدي- ((نشط الحركة الفكرية بين رواد المعرفة النظرية، فأسهم في رسم حدود الالتزام بالمذاهب عند الغربيين، و أجلى بعضاً من الحقيقة المنسية، و هي أن الفكر الخالص لذاته، ما إن ينكب بسلطته على الواقع الاجتماعي، حتى يتعرض لكل محاذير الخط بين المعرفة الفاعلة والمعرفة المفعول بها))¹؛ ما معناه، أن الغربيين كانوا على مستوى جيد من الوعي بما وقع للبنيوية من تحريفات نتيجة التوظيف المذهبي لها.

و- عوامل و أسباب تشكل بعد مذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي العربي:

أرجع "المسدي" أسباب تشكل بعد مذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي العربي إلى: ما تملك الطلائع العربية من انبهار تجاه المنهج البنيوي، حيث جعلهم هذا الانبهار يعتبرون البنيوية الرمز الحدائي الفريد، و قد أرجع "المسدي" هذا الانبهار هو الآخر إلى سببين اثنين، هما: صراع هذه الطلائع مع واقعها الفكري، و رفضها في ذلك الاستسلام إلى الوهن التاريخي، وتمردها على كل مظاهر الإحباط الثقافي، بالإضافة إلى تعلقها المطلق بمقولات ذهنية، مع إيمانها بشمولها في غفلة تامة عن نسبيتها. و هذا الانبهار الذي تجسد في العديد من كتابات هذه الطلائع، قال عنه "المسدي" بأنه غدى الاقتران شبه التلقائي بين الحداثة والبنيوية في أذهان الناس، وبالمقابل فقد رأى بأن الأصح هو أن يكون ربط الحداثة بمفهوم بنية الظواهر مبنياً على أساس أن هذه الأخيرة هي أحد مفاتيح فهمها، باعتبار أنها تتدرج ضمن مسالك التيارات المختلفة التي تقف عند حدود المنهجية، فتنبثق منها مدارس فكرية يستكمل اللاحق منها ما قد يكون السابق قد تغاضى عنه².

ي- البنيوية في بعدها المذهبي بين مؤيديها و معارضيها في المناخ الثقافي العربي:

يرى "المسدي" بأن التعلق الشديد بالتوظيف الإيديولوجي للبنيوية في الأوساط الفكرية العربية قد أدى إلى التباسات فكرية عدة، كان من نتائجها انطلاق حركة من الرفض امتزجت فيها الرؤية المجردة بالحماسة الذاتية، و قد اشتدت هذه الحركة أكثر فأكثر لعدم قيام الرواد البنيويين بتعديل موقفهم، و إرساء بعض التوازن بعد جموحهم الكبير ذاك، و قد اتخذت

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص40.

² ينظر: نفسه، ص41.

حركة الرفض هذه -حسب المسدي- أشكالاً عدّة؛ أقلها تواترا الكتابة الصريحة. و مدار الرفض فيها كان اعتبار البنيوية ثقافة غزو، و عدّها جسماً غريباً عن الذات و الثقافة العربية و عن أهم مقوماتهما¹. و فيما يلي توضيح لأهم مظاهر التعلق المفرط بالبنيوية من جهة، و لأهم مظاهر النفور الشديد منها من جهة أخرى، مثلما عبّر عن ذلك المسدي.

1- مظاهر التعلق الشديد بالبنيوية:

و تتمثل في الآتي²:

- تبني البعض لأدوات العمل التي يفرزها المنهج البنيوي، و توسّله بها بحسب المقامات التي تعرض له في محافل الفكر و الثقافة.

- تبشير البعض بالبنيوية كبديل حاسم لواقع الفكر العربي الراهن؛ حيث اعتبروا البنيوية شيئاً يتجاوز بمضمونه و فعله إطار تحقيق "التتوير" الجذري للفكر، و هو ما أشاع الإحساس بأن للبنيوية سلطاناً مزدوجاً: على الفكر و على الواقع معاً، وهذا ما تجسم معه الانسياب من الحقل الذهني الخالص إلى المجال الإيديولوجي.

- ما صدر من بعض رموز الحداثة العربية - ممن اشتد حماسهم بالبنيوية- عندما كانوا ينهون بصرامة النهج البنيوي، و يبشرون بغايات المشروع الجديد في تغيير الفكر العربي على مستوى الواقع الاجتماعي و الثقافي؛ حيث تجرّوا على الفكر العربي في تشخيصهم له، حين انبروا يشهرون بما بدا لهم أنه من مظاهر الوهن في بنيته، وانتهكوا بعض حرّماته، حين جعلوا الجزئية و السطحية و الشخصية من أبرز سماته، و استباحوا الجزم بأنه فكر ترقيعي في غالب أحواله، فإذا أسعفه الحظ كان فكراً توفيقياً، و من ثم حكموا عليه بأنه فكر يقوم على النفي أكثر من قيامه على الإيجاب، و عليه فهو فكر قاصر في نظرهم، لا ينهض به من حالة القصور تلك إلا المشروع البنيوي النوري.

و من أمثلة المفكرين العرب الذين تعلقوا بالتوظيف المذهبي للبنيوية تعلقاً شديداً إلى حد انتقاد الفكر العربي انتقاداً لاذعاً، "كمال أبو ديب"؛ حيث قال في مقدّمة كتابه "جدلية الخفاء و التجلي"، أنه يريد من خلال هذا الكتاب -الذي حاول فيه اكتناه أسرار البنيوية- أن يغيّر

¹ ينظر: عيد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 41-42.

² ينظر: نفسه، ص 41-42.

الفكر العربي وينقله من حالة القصور و العجز بواسطة البنيوية وفحواها إلى حالة أفضل وأحسن مما هو عليها، حيث قال: ((بهذا التصور والإصرار عليه، يكون هذا الكتاب -الذي يهدف إلى اكتناه جدلية الخفاء و التجلي وأسرار البنية العميقة و تحولاتها- طموحا لا إلى فهم عدد محدود من النصوص أو الظواهر في الشعر و الوجود، بل إلى أبعد من ذلك بكثير: إلى تغيير الفكر العربي في معانيته للثقافة و الإنسان والشعر، إلى نقله من فكر تطغى عليه الجزئية والسطحية والشخصانية إلى فكر يتزعزع في مناخ الرؤية المعقدة، المتقصية، الموضوعية، والشمولية و الجذرية في آن واحد))¹، ثم أردف قائلا: ((و بهذا التصور أيضا، فإن طموح هذا الكتاب ثوري تأسيسي، و في الآن نفسه، رفضي نقضي، لأن الزمن لم يعد زمن القبول بالرقع الصغيرة التي أسميناها خلال مائة عام "منجزات عصر النهضة العربية"، و لأن الفكر العربي بعد مائة عام من التخبط و التماس والبحث والانتكاس ما يزال -في أحواله العادية- فكرا ترقيعيا، و في أفضل أحواله فكرا توفيقيا... و لأن الفكر العربي كذلك ما يزال عاجزا عن التصور الكلي المعقد لحركة الانسان في المجتمع، ولقوانين التطور الفني و الاقتصادي و السياسي والاجتماعي و النفسي فيه، و لأن الفكر العربي أخيرا ما يزال عاجزا عن أن يبيلور تصورا بنيويا لمشروع سياسي أو اقتصادي، أو لدراسة قصيدة أو رواية، أو لإنشاء جمعية أو مؤسسة تجارية أو عسكرية))².

2- مظاهر النفور الشديد من البنيوية:

لقد ذهب المعترضون -حسب المسدي- مذاهب عدة تجاه البنيوية، أهمها³:

- اعتبار البنيوية تيارا من التيارات المؤدية إلى الاستيلا ب.
- اعتبار البنيوية مع اللسانيات و الأسلوبية من روافد الحداثة، و الحداثة بدعة، و في كل بدعة مروق و من ثم فهي مرفوضة، و قد جاء هذا الاعتبار على لسان أطراف عدة، ذات هويات معرفية متباينة.
- اعتبار البنيوية مظها من مظاهر الهيمنة الغربية، و من ثم تمت استثارة نوازع الصراع بين الشرق و الغرب في سياق ثنائيات ضدية؛ كالغربة و الأصالة من جهة أولى، والإذعان و المقاومة من جهة ثانية، و المحيط و المركز من جهة ثالثة.

¹ كمال أبو ديب، جدلية الخفاء و التجلي (دراسات بنيوية في الشعر)، ص07.

² نفسه، ص08.

³ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص42-43.

و من أمثلة المفكرين العرب الذين نفروا نفورا شديدا من التوظيف الإيديولوجي للبنيوية "محمد جمال باروت". و هو لم يرفض تماما فكرة أخذ جديد الغرب عنه، لكنه قبله بشرط التسلح بفكر نقدي يفحصه و يمعن النظر إليه، ويُكَيِّفُه حسب طبيعة الثقافة العربية، بحيث يجعله عنصرا طبيعيا ضمن عناصر خبرته الثقافية، لا عنصرا غريبا و دخيلا عنها. و قد أقر "جمال باروت" بالنتائج الإيجابية لتوظيف البنيوية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية، لكنه رأى بأن الفكر العربي قد أخذها و أراد إدخالها في المشروع الثقافي العربي بشكل اعتباطي، دون فحص وتمحيص لها، و التسلح بفكر نقدي فاحص للوافد عن الغرب هو المميز الوحيد - حسب رأيه - بين كونية الإنجاز المفهومي العلمي و ثقافة الغزو، ولما لم يتوافر هذا الفكر النقدي عند المفكرين العرب، كانت البنيوية في نظره تنوعا في ثقافة الغزو المؤدية إلى الاستيلاء لا أكثر، و قد رأى بأن إدخال البنيوية في حقل الدراسات الأدبية لا يعيد النظر في مفاهيم الشعر فحسب، و إنما يعيد النظر في مفاهيم الثقافة العربية ككل¹.

و بين المؤيدين للتوظيف المذهبي للبنيوية و المعارضين له، يظهر "المسدي" معارضا له و بشدة، و ذلك من خلال تعبيراته الواردة في سياق تعرضه للبنيوية في بعدها هذا، ولعل أدل تعبير على ذلك -رغم أن موقفه هذا يتم تبينه من فحوى كلامه ككل- هو قوله: ((إن هذا الشطط في توظيف القضية البنيوية مع الانزلاق بها من المستوى المعرفي إلى الحضية الأيديولوجية قد أدى إلى...))²، و لا يخفى ما تحمله كلمة "حضية" من دلالات يمكن إجمالها في معنى الانحدار من مستوى أعلى إلى مستوى أدنى.

ن- نتائج التوظيف المذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي العربي:

لقد كان من مستتبعات التوظيف المذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي العربي -حسب ما جاء به المسدي- اعتبار ((الحدائثة منهجا جديدا في فهم الوجود، يبشر بفجر مرحلة تاريخية مغايرة لما مضى كليا، و لما كان الهاجس هو اعتبار الوجود -أياً كان تشكله- جملة من القرائن المكتفية بذاتها، فقد حُيِّل أن من شروط استقامة النهج البنيوي بوصفه رمز الحدائثة، إعلان القطيعة مع الماضي، و بالتالي رفض المواريث الإنسانية من حيث هي قيمة

¹ ينظر: محمد جمال باروت، "الشعرية البنيوية و المقاربات البنيوية في الفكر النقدي العربي"، الموقف الأدبي، ع: 131، مارس 1982، ص 40-44. نقلا عن: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 121-123.

² عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 42.

مسترسلة، ثم نقضها من حيث هي سلطة مرجعية¹، و معنى هذا هو أن التوظيف المذهبي للبنيوية في المناخ الثقافي العربي قد تسبب -حسب تقييم المسدي- في فهم خاطئ للبنيوية عند مفكره.

ل- تقييم "المسدي" لموقف الفكر العربي من البنيوية و موقفه منها:

قيّم "المسدي" موقف الفكر العربي من البنيوية بقسميه؛ المؤيد حد النخاع، و الرفض دونما نقاش؛ و قد رأى بأن: الأول أساء إلى البنيوية بانحيازه المبالغ لها، و إيمانه بأنها مفتاح سحري يحقق المعجزة الفكرية، و ذلك لأن هذا الإطلاق من الأمور المستحيلة. أما الثاني فقد رأى بأنه أساء لنفسه، و ذلك بسبب تصديه للبنيوية في اندفاع حماسي لا عقلنة فيه و لا روية؛ حيث مكّن خصومه من كشف الثغرات التي ينطوي عليها بناؤه الذهني و من ثمّ مكّنهم من نفسه².

و أما عن موقف "المسدي" من البنيوية، فقد عبّر عنه على مرحلتين اثنتين؛ الأولى عامة، تتعلق بتقييم الجديد الذي من الممكن أن يجيء به العقل البشري عموماً، أما الثانية فخاصة، تتعلق بتقييم جديد البنيوية باعتبارها إحدى الإنتاجات الجديدة للعقل البشري.

لقد رأى "المسدي" بأن: العقل البشري طيلة مسيرة حياته، و عبر كل تاريخه، يبحث دائماً عن أفضل الطرق لتحقيق ملكة الإدراك عند الإنسان، و من ثم فقد كان من الحقائق الثابتة أن يظل هذا العقل دائماً يشك في ذاته؛ أي يشك فيما أنتجه و توصل إليه من سبل تحقق له الإدراك و المعرفة، و أن تزداد حركة الشك هذه عنده تواتراً و كثافة، كلما ازداد نجم الحضارة الإنسانية تألقاً؛ أي كلما كان ما جاء به أوفق و أفضل، و بالتالي فشكه فيما أنتجه و ازدياد هذا الشك ليس دليلاً على قصور ما أنتجه، بل على روعته إن صح التقدير، لأنه بطبعه يبحث عن الأروع من الرائع و عن الأكثر روعة من هذا الأروع و هكذا...، و منه خلّص "المسدي" إلى أن المدارس الفكرية عموماً و ما انبثق عنها من تيارات منهجية ليست إلا حلقات متعاقبة، يأتي الجديد منها بما يسد ثغرة من ثغرات السالف، ثم لا يكاد يستقر الأمر، حتى تتكشف تناقضات جديدة تستدعي هي الأخرى تصوراً مغايراً يعين على تجاوزها و هكذا³.

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص41.

² ينظر: نفسه، ص43.

³ ينظر: نفسه، ص44.

كان هذا عن تقييم "المسدي" لجديد العقل البشري عموماً، أما عن تقييمه لجديد البنيوية، فقد رأى بأنها قدمت للعديد من العلوم الإنسانية (العلوم النسبية) الأدوات الملائمة لإحكام مناهجها من أجل الاقتراب من تحقيق حلمها بالحق بركب العلوم الدقيقة¹.

و في نهاية المطاف لا بد من الإشارة إلى أهمية ما أورده "المسدي" في تناوله للبنيوية في بعدها المذهبي من وجهة نظره هو؛ حيث قال في هذا الشأن أن: ((عملية توظيف أي محتوى من محتويات المخزون العلمي في أمة من الأمم، توظيفاً يخرج بها عن مدار العلم إلى شيء آخر، هي في حد ذاتها ظاهرة اجتماعية-ثقافية حري بنا أن ندرسها لنستشف مظاهرها و نتعقب ارتكازاتها المختلفة))².

¹ ينظر: عيد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 43-44.

² نفسه، ص 43.

الفصل الثالث: أهم تطبيقات البنيوية و استثماراتها

أولاً: البعد النقدي للبنيوية.

ثانياً: البعد التربوي للبنيوية.

أولاً: ميدان النقد الأدبي

هدف "المسدي" من تناوله لـ: "البنيوية" في "بعدها النقدي" و خطته المتعبة لتحقيقه: لقد ضبط "المسدي" غرضه من تناول "البنيوية" في "بعدها النقدي" بشكل واضح ودقيق؛ حيث ذهب إلى التعريف به في ذاته أولاً، ثم تمييزه ثانياً عن: باقي أغراضه السابقة فيما سلف له من كتابات نقدية سواء التنظيري منها أو التطبيقي من جهة، و عن: أغراض باقي النقاد -في مجمل الحالات- عند طرقهم الموضوع نفسه من جهة أخرى، هذا بالإضافة إلى تحديده أهمية هذا الغرض الجزئي فيما يخدم غرضه العام من تناوله لقضية البنيوية. و كما حدد "المسدي" هدفه، فقد حدّد أيضاً خطته العملية التي سيتبعها لتحقيقه بكل وضوح وشمول، مع تبريره لسبب اختياره لها. و فيما يلي تفصيل لما سبق ذكره.

أ-الهدف من الدراسة:

إنّ هدف "المسدي" من تناوله لـ: "البنيوية" في "بعدها النقدي" هو ((محاولة النفاذ إلى أغوار العلاقة بين الفكر البنيوي و الأدب في بعدها النقدي))¹؛ أي محاولة ((البحث في العلاقة بين البنيوية والأدب من وجوها المتفاعلة جدلياً))²، وهو هدف -كما قال- يختلف عمّا: دأب عليه فيما سلف من كتاباته النقدية التنظيري منها والتطبيقي³، كما يختلف أيضاً عن: أهداف أغلب النقاد البنيويين في أعمالهم التي تناولوا فيها الموضوع ذاته؛ حيث انحصر مهمم -حسبه- في وصف مكونات المنهج البنيوي في النقد الأدبي، و في الاستدلال على مقوماته التطبيقية أو نتائج التحليلية⁴.

و هذا فعلاً ما يُلاحظ عند الاطلاع -مع إجراء المقارنة- على: مجمل كتابات "المسدي" النقدية، و التي منها: "الأدب و خطاب النقد" و"النقد و الحداثة" و"مساءلات في الأدب واللغة" ... و غيرها من جهة، و على: أكثر ما كتبه النقاد في هذا الموضوع من جهة أخرى؛ و الذي من أمثله كتاب: "مناهج النقد الأدبي" لـ: "يوسف و غليسي"، و"اتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)" لـ: "إبراهيم عبد العزيز السّمري"، و"مناهج النقد المعاصر" لـ: "صلاح فضل" ... و غيرها من الكتب الكثير، وهذا لا ينقص من قيمتها

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص45.

² نفسه، ص45.

³ ينظر: نفسه، ص45.

⁴ ينظر: نفسه، ص45.

وأهميتها، بل إنها بصفتها التي ظهرت فيها، مع هذه الدراسة النوعية للمسدي و ما شابهها و شاكها من غيرها من الدراسات، كل متكامل يساعد على تشكيل وعي شامل بالبنيوية من جميع جوانبها لدى القارئ. و من الدراسات المشابهة لدراسة "المسدي" يوجد: "في معرفة النص" ل: "يمنى العيد"، و "المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)" لـ "عبد العزيز حمودة" و غيرهما.

و علاوة على ما سبق، فقد أوضح "المسدي" أهمية هدفه الجزئي من تناوله للبنيوية في بعدها النقدي فيما يخدم هدفه العام من دراسته لقضية البنيوية ككل، حين قال بأنه من خلال تحقيقه له: يستطيع استخلاص حصيلة معرفية، تخصب القيمة الأصولية العامة للبنيوية، وذلك بإضافة هذه الحصيلة المعرفية إلى سائر الحاصلات المعرفية الأخرى التي تم استخلاصها من دراسته للبنيوية في مختلف أبعادها¹.

ب- الخطة المعتمدة في الدراسة لبلوغ الهدف المنشود:

لقد ارتأى "المسدي" من أجل تحقيق هدفه الذي رسمه بادئ الأمر؛ أي من أجل إماطته اللثام عن العمق النظري بين البنيوية و الأدب²، ضرورة الإجابة عن تساؤل مزدوج؛ ((تساؤل من جهة عن القيمة المضافة التي حققتها البنيوية في مجال النقد الأدبي؟ و من جهة أخرى عن الأفق الذي يبشّر به هذا المنهج ضمن صيرورة المستقبل عبر مكتسبات الحاضر: أنحو الاتساع هو سائر أم نحو الانحسار؟))³، وللإجابة عن هذا التساؤل المزدوج، رأى "المسدي" حتمية معالجة ثلاث مسائل جوهرية مترتبة ومتعاضلة في الوقت نفسه، و هي على التوالي ((مسألة "ماهية الأدب"، و "قضية تناوله"، و "مسألة القيمة"، وهو ما يعود بصياغة أخرى إلى بسط "إشكالية التعريف" و "إشكالية الممارسة" و من خلالهما "إشكالية التعليل")⁴، مع ضرورة التطرق إلى: "طبيعة المنطق النشوئي بين البنيوية والأدب" في تقديم سابق لتناول المسائل الثلاث السالفة؛ و ذلك نظرا لما له من أهمية بالغة

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص45.

² ينظر: نفسه، ص46.

³ نفسه، ص45.

⁴ نفسه، ص46.

في التمهيد لها من جهة، و تبرير ضرورة التطرق لها و معالجتها من جهة أخرى؛ بتبريره لمشروعية التساؤل الذي تتولى هي الإجابة عنه¹.

إن إعراب "المسدي" عن هدفه من تناول "البنيوية" في "بعدها النقدي"، كانت له أهميته البالغة في وضع القارئ في صلب الموضوع؛ بحيث يكون على دراية تامة بما يقرأ، كما تكون له القدرة على معرفة مدى استيعابه لما جاء به "المسدي" في دراسته الجزئية هذه؛ وذلك بمقارنته الشيء الذي حصّله من قراءته لها، بالذي وجب عليه أن يحصله من فكر ومعلومات، و هو ما يبلوره الهدف المرسوم. بالإضافة إلى أن توضيح "المسدي" لتمييز هدفه هذا إلى حد ما، أكسب دراسته صفة المشروعية من جهة، و جعل القارئ يضع ما استفاده من معلومات و فكر منها، موضعها الصحيح في ذهنه ضمن معارفه السابقة التي اكتسبها حول الموضوع ذاته من كتب أخرى، بشكل تتكامل فيه الصورة لديه و تتضح. و أخيرا وبمعرفة القارئ أيضا لأهمية هذا الهدف الجزئي بخصوص ما يخدم الهدف العام، يستطيع ربط حصيلته الفكرية هنا، بباقي الأفكار التي اكتسبها من دراسة "المسدي" للبنيوية في أبعادها الأخرى، ربطا جيدا يخرج من خلاله بصورة متكاملة عن البنيوية كما قدمها "المسدي".

و كما أن ذكر الهدف من الدراسة و بشكل دقيق وواضح ذو أهمية كبيرة، فإن ذكر الخطة العامة المتبعة من أجل تحقيقه لا يقل أهمية؛ و "المسدي" بذكره لأهم النقاط العريضة و المحاور الأساسية التي عالج من خلالها البنيوية في بعدها النقدي من أجل تحقيق هدفه الذي يريد الوصول إليه، جعل القارئ على معرفة تامة بكيفية سير الأفكار وتسلسلها و ترابط بعضها ببعض، و بأهم و أبرز المحطات و المنعرجات الرئيسة فيها، بشكل يستجمع القارئ معه ووفقه المعلومات بطريقة صحيحة، و بكل يسر و سهولة.

فحوى دراسة "المسدي" لـ: "البنيوية" في "بعدها النقدي":

قبل الولوج إلى محتوى دراسة "المسدي" لـ: "البنيوية" في "بعدها النقدي"، و التي جاءت وفق مراحل معينة -سبق إيضاحها- تمثلت أولا في تمهيد حول "طبيعة المنطلق النشوي بين البنيوية و الأدب"، يليه عرض و مناقشة للإشكالات الثلاث: "إشكالية التعريف"

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص46،45.

و"إشكالية الممارسة" و "إشكالية القيمة" على التوالي. قبل الولوج إلى كل هذا وجب التعرف أولاً -كما فعل المسدي- على مكانة "البنيوية" في "ميدان النقد الأدبي".

مكانة "البنيوية" في "ميدان النقد الأدبي":

يرى "المسدي" بأن ((الريادة البنيوية قد اقترنت في كثير من تجلياتها بميدان النقد الأدبي))¹؛ بمعنى أن ميدان النقد الأدبي كان من أكثر الميادين العلمية استثماراً للفكر البنيوي في تطبيقاته العملية. و قد أرجع "المسدي" ذلك إلى سببين اثنين، وصف أحدهما بالعام و الآخر بالخاص؛ أما العام فهو ما اشترك فيه الوطن العربي مع سائر أقطار العالم، في حين أن الخاص هو ما اختص به الوطن العربي دون سائر الأقطار الأخرى، و هذان السببان هما كالتالي²:

السبب العام: هو بحث العلوم المتصلة بحقل الأدب عن مقومات المعارف الدقيقة أكثر من باقي العلوم الإنسانية الأخرى، و الظاهر هو أنها قد وجدت ظلتها هذه في الفكر البنيوي.

السبب الخاص: هو اجتياح موجة اللهف وراء الحداثة بشتى مداراتها للوطن العربي ككل، و قد كانت البنيوية أحد الرموز البارزة للحداثة.

و قد نجم عن اجتماع هذين السببين -حسب رأي المسدي- في الوطن العربي أن: كاد المنهج البنيوي يتكسر فيه منهجاً نقدياً بالمفهوم النوعي الذي لا يخرج عن فلك الإبداع القول³؛ بمعنى أن المنهج البنيوي شاع في الوطن العربي على أنه منهج نقدي يستعمل لدراسة و معالجة ظاهرة الإبداع الأدبي فقط دون سائر الظواهر الأخرى.

و هو ما تترجمه كتابات بعض النقاد العرب؛ حيث يذهب كثير منهم عند تعريفه بالبنيوية إلى حصرها في نطاق دراسة الإبداع الأدبي، و من أمثلتهم "يوسف و غليسي"؛ حيث قال عند تعريفه بها: ((و على العموم فإن البنيوية منهج نقدي داخلي، يقارب النصوص مقارنة آنية محايدة، تتمثل النص بنية لغوية متعاقبة، و وجوداً كلياً قائماً بذاته مستقلاً عن غيره))⁴، و كذلك "عبد العزيز السمري"؛ حيث قال: ((فالبنيوية إذن، طريقة

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص45.

² ينظر: نفسه، ص45.

³ ينظر: نفسه، ص45.

⁴ يوسف و غليسي، مناهج النقد الأدبي، ص71.

وصفية في قراءة النص الأدبي))¹. أما "صلاح فضل" فقد كان يقَدِّم البنيوية كمنهج يستعان به في الدراسات الإنسانية كلها إلى جانب الدراسات الأدبية و النقدية؛ حيث قال في سياق تأريخه لنشأتها: ((ابتداء لم ينبثق المنهج البنيوي في الفكر الأدبي والنقدي و في الدراسات الإنسانية فجأة، و إنما كانت له إرهابات تخمّرت عبر النصف الأول من القرن العشرين))².

و قد عبّر "سمير شريف استيتية" هو الآخر إلى جانب "المسدي" عن ترسخ المنهج البنيوي منها نقديا خاصا بالإبداع الأدبي فقط، في قوله: ((و دراسة النصوص تفسّر التوائم الكائن بين البنيوية و النقد، حتى أصبحت البنيوية توجهها نقديا خالصا في التعامل مع النصوص و دراستها))³.

طبيعة المنطلق النشوئي بين "البنيوية" و "الأدب"⁴:

يتسم المنطلق النشوئي بين "البنيوية" و "الأدب" -حسب ما ذهب إليه المسدي- بخاصية التضافر، و ذلك باعتباره -أي التضافر- ظاهرة منهجية ذات مردود معرفي؛ حيث مثّلت علاقة الأدب بالبنيوية ملتقى لروافد الحداثة مجتمعة، و هو ما يتضح بالنظر إلى أن:

- مفهوم "البنية" قد نشأ انطلاقا من "الظاهرة اللغوية"؛ باعتبار أن "البنية" خاصية لصيقة بها مستترة فيها، و ما "الأدب" إلا شكل من أشكال هذه الظاهرة.

- و الذي كان له الفضل في إتاحة ظروف الوعي بالخاصية المستترة في الظاهرة اللغوية و المتمثلة في "البنية" هو علم السان الحديث؛ أي "اللسانيات"، و من ثمّ أُنجبت "البنيوية"، و قد استقت هذه الأخيرة من اللسانيات كل مفاهيمها الإجرائية بصفة مباشرة.

- بعد ذلك جاء "الأدب" بصفته تجليا طريفا من تجليات الكلام البشري موضوع "اللسانيات"، فأوجد لهذه الأخيرة مجالا خصبا للبحث في اللغة، و ما إن اقتحمت "اللسانيات" حقل الأدب بفحص خصائصه النصية، و استكشاف أسرار تبدل اللغة فيه من أداة إبلاغية إلى أداة فنية، حتى انبثق "علم الأسلوب"، و إذا بالأسلوب نشاط

¹ عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، ص187.

² صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص81.

³ سمير شريف استيتية، اللسانيات (المجال و الوظيفة و المنهج)، ص170-171.

⁴ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص46.

وسيط؛ له قدم في اللغويات و أخرى في النقد الحديث. يقول "حمادي صمود" متحدثاً عن نشأة الأسلوبية: ((إنَّ الألسنية تأسست أصولها، و تبيّنت اتجاهاتها الكبرى في منتصف هذا القرن، ولدت صلتها بالأدب مذهباً في ممارستها النص جديداً، أطلقوا عليه "الأسلوبية" أو "علم الأسلوب"، ترمي من وراءه احتواء "الكلم الأدبي"، و جعل النقد فننا من أفنان شجرتها التي تفرّعت بشكل يدعو إلى الدهشة))¹.

- ثم ما انفك المنهج البنيوي يتطعم بتضافر المجالات المتاخمة حتى تزوج مع علم العلامات، فكانت السيميائية مرفقا جديدا تغذت به البنيوية حتى كادت تنفرد به جزءا لا يتجزأ في طرق عملها. و هو ما عبّر عنه "محمد مفتاح" عند توضيحه لكيفية نشوء أحد الاتجاهات السيميائية، و المتمثل في "غريماس و مدرسته"؛ حيث قال عنه: ((بدأ هذا الاتجاه متأثراً بالدراسات اللسانية البنيوية، و بالأنثروبولوجيا البنيوية، ثم ساير التجديد بإدماج بعض مسلمات النظرية التوليدية، و بعض النتائج المنطقية والتداولية))².

و بتعدّد الأبعاد ضمن العلاقة الأصلية بين "البنيوية" و "الأدب" كما تم إيضاحها، برّر "المسدي" ضرورة تساؤله عمّا أضافه الفكر البنيوي إلى الأدب؛ من حيث مفهومه الخاص للأدب، و كيفية دراسته له، و هدفه من ذلك؟ و هو ما أجاب عنه ببسط ومعالجة "إشكالية التعريف" و "إشكالية الممارسة" و "إشكالية القيمة" على الترتيب.

أ- إشكالية التعريف:

في إشكالية التعريف، تطرّق "المسدي" إلى: مفهوم الأدب من المنظور البنيوي، شروط الإقرار بوجود نص أدبي من المنظور البنيوي و خلفياتها التأسيسية، مناقشة ما شاع من تأويلات بخصوص شروط إقرار البنيوية بوجود نص أدبي، مراجعة المفهوم الذي وضعته البنيوية للنص الأدبي، مفارقة المنهج البنيوي لغيره من المناهج النقدية من حيث كيفية تناوله للإبداع الأدبي و هدفه من دراسته.

¹ حمادي صمود، المناهج اللغوية في دراسة الظاهرة الأدبية، ص40.

² محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1992، ص12.

1- مفهوم الأدب من المنظور البنيوي:

يرى "المسدي" أن: البنيوية قد أخرجت -بمعاوضة كل الروافد المرافقة لها- مفهوم الأدب من الإطار المطلق الذي كان يُعرّف فيه بصفة مجردة، و دخلت به في سياق الموجود العيني، و ذلك بضرب من ضروب المحاينة التي تحدد الشيء ذاته¹؛ معنى ذلك أن البنيوية قد اعتبرت النص الأدبي موجودا عينيا يتمتع بالاستقلال الذاتي عن كل الظروف المحيطة به، و هذا الموجود قامت بدراسته في ذاته و لأجل ذاته، بخلاف ما ذهبت إليه المناهج النقدية السابقة عليها؛ حيث كانت دائما تربط النص الأدبي بالسياقات التي أنتج فيها، و إن ذهبت في ذلك مذاهب عدة، كما أنها كانت تدرسه لأهداف لا تخدمه هو في ذاته من حيث كونه إبداعا فنيا.

و هذا ما عبّر عنه "عبد العزيز السمري" عند مقارنته بين البنيوية و غيرها من المناهج السياقية في كيفية تناولها للعمل الأدبي؛ حيث قال: ((إنَّ البنيوية منهجية و نشاط و قراءة و تصوّر فلسفي، يقصي بالخارج و التاريخ و الإنسان و كل ما هو مرجعي و واقعي، و يركّز فقط على ما هو لغوي، و يستقرئ الدوال الداخلية للنص دون الانفتاح على الظروف السياقية أو الخارجية التي قد تكون قد أفرزت هذا النص من قريب أو من بعيد. و يعني هذا أنَّ البنيوية تتعارض مع المناهج الخارجية؛ كالمنهج النفسي و المنهج الاجتماعي و المنهج التاريخي و المنهج البنيوي التكويني، الذي يفتح على المرجع السياسي و الاقتصادي والاجتماعي و التاريخي، من خلال ثنائية الفهم و التفسير، قصد تحديد البنية الدالة و الرؤية للعالم))².

2- شروط الإقرار بوجود نص أدبي من المنظور البنيوي و خلفياتها التأسيسية:

إن الاعتراف بوجود نص أدبي من المنظور البنيوي -حسب ما جاء به المسدي- يبدأ لحظة الإقرار بأنه أدب، و لحظة الإقرار هذه لا تتحقق إلا بوجود طرف آخر يتلقاه و يتقبله في خصوصيته التي تجلّى فيها و هي كونه أدبا، و ذلك بغض النظر عن صاحبه الذي قام ببثه³؛ ما يعني أن أدبية النص تكمن في ذاته هو لا في صاحبه و ما يحيط به من ظروف. و من هنا أقامت البنيوية سلطة النص و أزاحت سلطة صاحب النص؛ و هذا ما

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص46.

² عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، ص188.

³ ينظر: عبد السلام المسدي، المصدر السابق، ص47.

عبر عنه "صلاح فضل" حين راح يوضح لبّ الدراسة البنيوية للنص الأدبي؛ حيث قال: ((ومن هنا سنجد أنّ العنصر الجوهرى فى العمل الأدبى، هو الذى لا يرتبط بالجانب الخارجى، سواء بالمؤلف أو سياقه النفسى، و لا بالمجتمع و ضروراته الخارجىة، ولا بالتارىخ و صيرورته، و إنّما يرتبط بما بدأ البنىويون يسمونه بأدبىة الأدب؛ أى تلك العناصر التى تجعل الأدب أدبا، تلك العناصر التى يمكن اعتبارها ماثلة فى النصّ محدّدة لجنسه الفنّى، ومكيفة لطبىعة تكوينه، و موجهة لمدى كفاءته فى أداء وظيفته الجمالية على وجه التحديد))¹.

و قد ذهب "المسدى" إلى أن أسباب إقامة البنيوية لسلطة النص و إزاحتها بالمقابل لسلطة صاحب النص، تُستلهم أولا و قبل كل شيء من البحث اللغوى: ففىه تُعتبر عملية تلقى الرسالة اللغوىة سابقة على عملية بثها، رغم الأسبقىة الزمنية لعملية بثها على عملية تلقيها؛ و ذلك لأن اللغوى البنىوى يحكم على الكلام -و هو موضوع دراسته- بأنه موجود ساعة يحصل التقاطه و إدراكه على أنه كلام، أما قبل ذلك فوجوده محصور فى ذات صاحبه، و هو وجود نسبى، بل هو كغير الموجود، و من ثم زُعم بأن الأصل هو تفكيك الرسالة لا تركيبها. و كذلك كان الأمر فى الأدب؛ فنقطة البداية فى شأنه تبدأ لحظة التقاطه، ثم من تلك النقطة تنطلق العمليات المتنوعة فى الاتجاهات المختلفة².

و عن رأي "المسدى" بخصوص المنطلق اللغوى فى دراسة الكلام البشرى، فقد كان موافقا له، و ذلك حين راح يؤيده بمثال من عنده؛ و الذى تمثّل فى أن: الإنسان -من وجهة نظره- يسمع اللغة و يفهمها، قبل أن يكون قادرا على تركيبها و إفهام غيره بها³.

و من خلال الشروط التى وضعتها البنيوية لأجل الإقرار بوجود نص أدبى، يرى "المسدى" أن البنيوية قد أنزلت مفهوم الأدب إلى الواقع الاختبارى، و هو أمر يبدو إيجابيا من وجهة نظره، لكنه رفض ما ذهب إليه الكثيرون -بفعل جاذبية التغيير الجامح- من اعتبار النص الأدبى بنية متفاصلة يمكنها أن تتشكّل بمفردها ظاهرة مستقرة⁴.

¹ صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص 87-88.

² ينظر: عبد السلام المسدى، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 48-49.

³ ينظر: نفسه، ص 49.

⁴ ينظر: نفسه، ص 47.

و قد وافق "المسدي" البنيوية فيما ذهبت إليه حين رأت بأن: إقرار المتقبل لشيء يتلقاه قراءة أو سماعاً بأنه أدب، يكون انطلاقاً منه في ذاته و دون الرجوع بالضرورة إلى صاحبه من جهة، كما وافقها أيضاً من جهة أخرى في قولها بأن أدبية النص تكمن في نسيجه التركيبي لا في مضمونه الدلالي. و موافقته هذه تظهر عند قوله بأن ((إقرار المتقبل لشيء يتلقاه سماعاً أو قراءة بأنه أدب، لا يتوقف أبداً على معرفة واضعه، سواء بالتمحيص أو بمجرد الذكر، بل قد يحصل أن يهتز الإنسان لشيء بمجرد تقبل نسيجه التركيبي، والحال أنه لم تترسب بعد في وعيه تفاصيل مضمونه؛ بحيث يكون تسليمه بالسمة الأدبية في شبه انفصال عن تبنيه لمستلزماته الدلالية))¹.

و مع تصريح "المسدي" بموافقته للبنيوية فيما ذهبت إليه، فقد دعم موافقته بالعديد من الأمثلة الواقعية، و التي يمكن اختصارها في النقاط التالية²:

- رواج العديد من الآداب دون معرفة واضعيها؛ أي أصحابها، و هو ما يظهر بصفة شائعة في مواريث كل الحضارات، و ما الأدب الشعبي إلا نموذج من ذلك.
- تتأول بعض النقاد لأدب ما من أجل دحض مضمونه من موقع مناهض، بعد أن يكونوا قد أقرّوا بأدبيته منذ تصدوا له ليقارعوه.
- التباين الحاصل بين علاقة ناقد بأديب معين، و بين علاقته بأدبه؛ إذ قد يتعلّق الناقد بالأديب ثم ينفي عمّا صنعه صفة الأدب، و قد يتجافى عنه، و لكنه يُقرّ لما وضعه -هذا الأديب- بحسن الصنعة و كمال المرتبة.
- إقرار بعض العرب في صدر الإسلام بإعجاز النص الحكيم، لما أخذهم من الوجد عند سماعهم له، رغم عدم إيمانهم بصاحبه، و رفضهم لمضمونه، هذا المضمون الذي كان بينهم و بينه جفوة الشرك و الإلحاد.

و هكذا خلّص "المسدي" انطلاقاً من رؤيته النقدية للفكر البنيوي في علاقته مع الأدب إلى أن ((النص يتحدّد بأنه قد كان، و كان يمكن ألا يكون، لا أنه قد كان، و كان يجب أن يكون، فالنص يؤخذ و هو جاهز، و الأدب يستقيم أدباً في ذاته قبل كل شيء))³؛ معنى ذلك أن النص قد كان؛ أي وُجد، عندما أنجزه صاحبه، و كان من الممكن أن لا يكون؛ أي

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص47.

² ينظر: نفسه، ص48.

³ نفسه، ص49.

ألا يوجد، حينما لا يتم الاعتراف به على أنه أدب انطلاقاً من متلقيه، و ليس أنه قد وُجد حين أنجزه صاحبه، و كان لا بد له من أن يوجد، لَمَّا فُرض على متلقيه أن يعترف به على أنه أدب نظراً لأنه تم إنجازُه من قِبَل صاحبه ذاك.

لقد ناقش "المسدي" من خلال العرض السابق، مسألة عزل البنيوية النص عن سياقه في إطار إمكانية تحقيقها لهدفها من تناول النص الأدبي بالدراسة و التحليل؛ أي في إطار إمكانية الحكم على نص ما بأنه أدب انطلاقاً منه هو في ذاته و دون الرجوع إلى صاحبه والسياقات التي أنتج فيها. لكن هناك من الدارسين من رفض رفضاً قاطعاً عزل البنيوية للنص عن سياقه، و من أمثلتهم "نجيب العوفي"؛ حيث قال بقصور البنيوية الشكلانية لأسباب عدّة من بينها أنها: ((تعزل النص عن شروطه و مفاعيله الأساسية، تعزله عن المجال الحيوي التاريخي الذي يتبين به و فيه، لتتأمله في طريقه و ضمن مكوناته الداخلية كصدفة مغلقة على ذاتها مكتفية بذاتها))¹.

أمّا "عبد العزيز السمري" فعلى العكس من سابقه؛ لقد وافق البنيوية في عزلها النص عن سياقه؛ حيث قال: ((إن الناقد البنيوي عندما يتناول العمل الأدبي، يعزل النص تماماً عن كل السياقات الخارجية؛ كالظروف الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية التي تتعلق بالمبدع أكثر من تعلقها بالنص، تلك السياقات التي أضحت من معوّقات النقد الموضوعي))².

3- مناقشة ما شاع من تأويلات بخصوص شروط إقرار البنيوية بوجود نص أدبي:

لقد ذهب "المسدي" إلى أن ((مسارة بعض البنيويين إلى الإعلان عن انفكاك النص عن صاحبه، و التأكيد على انقطاع صلة الرحم بين الأدب و واضعه، مع ما رافق ذلك من إشادة و تمجيد باسم الحداثة، هو الذي جنى على المنهج النقدي و ألبسه تبعه الإضمار، ولا سيما عندما دخل المجاز في الحلبة، و فعل فعله يوم لَدَّ لبعضهم أن يعلن "موت المؤلف" كمتصوّر ذهني في العملية الأدبية))³، و الحقيقة -حسب رأيه- تتمثل في أن عزل البنيوية للنص عن صاحبه ((ليس اختراقاً لروابط الاقتران في منشأ النص، و لا اغتصاباً لملكية الأدب من الأديب، و إنّما هو تأسيس لسلم جديد في الارتباط يبدأ من المتلقي للنص))⁴،

¹ نجيب العوفي، درجة الوعي في الكتابة (دراسات نقدية)، ص33.

² عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، ص187-188.

³ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص48.

⁴ نفسه، ص48.

ذلك أن ((الذي يوقع على شهادة ميلاد النص ليس هو صانعه، وإنما هو متقبله، و لئن كان الأديب هو الأب الطبيعي، فإن وليه الشرعي إنما هو قارئه))¹، و كل هذا الالتباس قد حصل لما كانت القيمة التعريفية الجديدة في حدّ النص مع البنيوية -على حد قول المسدي- تتمثل في ((أن سمته الأدبية تنسب إلى واضعه من حيث الصنعة، و لكنها من حيث إقرارها أو نفيها، تنسب إلى المتلقي))².

و "عبد العزيز السمري" يوافق "المسدي" فيما ذهب إليه هنا؛ حيث قال: ((و هذا ما كان يقصده البنيويون حين أطلقوا شعار "موت المؤلف"، فقد كانوا يقصدون من وراءه أن يضعوا حداً للتيارات النفسية و الاجتماعية و غيرها في تفسير الأدب و نقده، و بعد أن يُقضي الناقد هذه السياقات يقوم بالبحث عن البنى الجزئية المشكّلة للنص، و دراسة العلاقات أو الأنساق القائمة بين هذه البنى دراسة وصفية آنية للوصول إلى البنية الكلية للنص أو العمل الأدبي))³.

4- مراجعة المفهوم الذي وضعته البنيوية للنص الأدبي:

لاحظ "المسدي" وجود مشكل عرضي، كان له تأثير عميق -حسب رأيه- في قضية تعريف البنيوية للنص الأدبي، و يتعلّق هذا المشكل بأهم الميزات و الخصائص التي تتوافر في اللغة و تسمح لها بتأدية وظيفتها عندما تُستعمل أدبا⁴؛ ذلك أن هذه الخصائص هي التي عرّفت البنيوية بواسطتها النص الأدبي.

و قد ناقش "المسدي" هذا المشكل على مراحل؛ حيث قام أولاً بتوضيح وظيفة اللغة عندما تُستعمل أدبا من المنظور البنيوي، ثم وضّح أهم خصائصها و ميزات التي سمحت لها بتحقيق وظيفتها تلك حسب المنظور نفسه، و بعدها قام بدحض -إن صحّ التعبير- ما ذهب إليه البنيوية في هذا الشأن، و أخيراً قدّم وجهة نظره الخاصة به في هذه المسألة شارحاً و معللاً رأيه الخاص، و من ثم معدّلاً لمفهوم النص الأدبي مثلما جاءت به البنيوية.

إن وظيفة اللغة عندما تُستعمل أدبا من المنظور البنيوي -حسب ما جاء به المسدي- تتمثل في "الوظيفة الشعرية"، و البنيوية تستند في هذا التحديد -على حد قوله- إلى التوزيع

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص48.

² نفسه، ص47.

³ عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، ص188.

⁴ ينظر: عبد السلام المسدي، المصدر السابق، ص49.

السداسي الذي وضعه "رومان جاكسون"، و الذي أسند بموجبه لكل طرف من الأطراف الداخلة في عملية التواصل اللغوي وظيفة مخصوصة، تقوم بها اللغة عندما يكون هو محل الارتكاز في عملية الإبلاغ، ولما تكون الرسالة -بالمعنى الفني في جهاز التخاطب- هدفا في ذاته، فإن اللغة تؤدي الوظيفة الشعرية¹.

و قد رأت البنيوية بأن الذي يسمح للغة بتأدية الوظيفة الشعرية عندما تستعمل أدبا هو نسيجها المتفرّد في بنيته الأسلوبية، بعكس النسيج اللغوي للكلام العادي الذي يضطلع بوظيفة الإبلاغ والتواصل بصفة أساسية و رئيسية².

و في مقابل ما ذهبت إليه البنيوية في هذا الشأن، فقد رأى "المسدي" خلاف ذلك؛ حيث ذهب إلى أنه لا يمكن الفصل فصلا تاما بين الكلامين العادي و الأدبي من حيث الخصائص الكامنة في النسيج التركيبي لكل واحد منهما.

لقد وافق "المسدي" البنيوية في أن اللغة العادية هي لغة شفافة، تخترق الإدراك الذهني للإنسان دون أي حاجز، و من ثم كان اضطلاعها بوظيفة الإبلاغ، في حين أن اللغة الأدبية هي لغة ثخنة، تستوقف مدارك الانسان فتحمله على فحصها و التأمل فيها بغية استيعاب صبغتها المتميّزة، و من ثم كان اضطلاعها بالوظيفة الشعرية³، لكن موافقته هذه اختصت بالجانب النظري لا الإجرائي، فمن الناحية الإجرائية رأى بأن ((الأدب لا يكون أدبا إلا تراءى في صورة الكلام الإبلاغي حتى يحقق الفارق بينه و بين اللغة التواصلية، مثلما أن لغة التخاطب لا تتفك تحاكي خصائص التأثير التي بها تحقق الوقع في المحاورة، دون أن يكون من أغراضها مماثله القول الفني))⁴؛ بمعنى أن كلا الكلامين، الأدبي و العادي يحمل بعضا من خصائص البنية التركيبية للآخر، بالإضافة إلى أن الذي ((يشهد له الناس بالقدرة على قضاء مآربه، و بالفضل في تطويع اللغة و استدراج الآخرين بها، إنما هو ذلك الذي يستعمل الكلام فيراوح في تركيبته بين مفاصل شفافة و أخرى غير شفافة))⁵؛ بمعنى أن كلا الكلامين عليهما أن يزاوجا بين خصائص اللغة العادية و الأخرى الأدبية حتى يؤديا

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص49.

² ينظر: نفسه، ص50.

³ ينظر: نفسه، ص50.

⁴ نفسه، ص50.

⁵ نفسه، ص50.

وظيفتهما على أحسن وجه، و من ثم فالفرق بينهما -حسب رأي المسدي- لا يمكن في النسيج اللغوي أو البنية التركيبية، و بالتالي فإنه لا يُكتفى -حسب رأيه- عند تعريف النص الأدبي بذكر نسيجه المتفرد في بنيته الأسلوبية كما فعلت البنيوية، لأن هذه الصفة تتواجد بالضرورة في غيره من أشكال الكلام العادي.

لقد رأى "المسدي" بأن الفارق بين الكلامين الأدبي و العادي يكمن في شيء آخر، لم يناقشه غيره من الباحثين، و هذا الشيء هو "الآداء" و شكله عند كليهما.

ذلك أن: الإنسان حينما استعمل الكلام العادي أرضح لغته إلى قانون الاقتصاد اللغوي في الآداء، و هذا القانون يتشخص في المنزع الطبيعي نحو إيصال أكبر عدد ممكن من المعلومات بأيسر ما يمكن من جهد تعبيرى، و هو قانون مطلق يتصل بجوهر علاقة الإنسان باللغة، و صورته البسيطة الأولى تبدأ في المجهود العضلي في عملية التلفظ، و المعادلة الحاصرة له، هي التوسط بين نزعة المجهود الأدنى و الحاجة إلى بلوغ المقصد¹، و هكذا يُلاحظ في الآداء المتعلق بالكلام العادي، أن الألفاظ و الجمل و العبارات تبدأ على وتيرة معينة، ثم كلما استشعر الانسان أن بعضها يغني عن بعض، و أن بعض أجزائها تحوّل إلى فائض لم تعد الحاجة في الإبلاغ متوقفة عليه، تجاوزه و اختصر المسافة دونه. والسبب الذي يثوي وراء هذه الظاهرة هو أن اللغة حدث تخاطبي، و أن منبتها الحقيقي هو الحوار².

أما عند استعمال الإنسان للكلام الأدبي فإنه لا يرضح لغته لهذا القانون؛ ذلك أن: جوهر الخطاب الأدبي في وجوده المبدئي، متناف مع خصائص الحوار التخاطبي بكل قوانينه الأدائية، و أبرزها أن الكلام العادي في المحاوره ينبثق ثم يتبدى في عين اللحظة التي يكون قد أدى فيها وظيفته الإبلاغية، فهو يتولد و ينقضي بلا مراوحة -كما سبق التوضيح- أما الكلام الأدبي، فإنه -من حيث الآداء- ينبثق ليبقى، و يتكشّف ليخترق حجاب الزمن، فهو في لحظة ميلاده ليس موعودا للانقضاء بل للاستمرار. و من هذه الناحية خالف الكلام الأدبي في كل ميزاته خصائص اللغة الطبيعية، بل إنه في كيانه اللغوي -حسب رأي المسدي- موجود غير طبيعي، لا في معنى التنافي مع الطبيعة، و إنما بدلالة أنه مُركب

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص51.

² ينظر: نفسه، ص51.

تركيبا يحاكي الوجود الطبيعي للغة، دون أن يكون في منشئه سالكا طبائع الوجود، من حيث مآلها إلى الفناء. و من هنا خلص "المسدي" إلى أن الحديث عن باث و متقبل بخصوص النص الأدبي هو من باب المجاز، و لكنه مجاز يتوظف ليدخل حرم التعامل المنهجي؛ لأن الأديب إذ يدفع برسالته، لا ينتظر جوابا على مضمون قوله، و إنما يتقرب جوابا على قيمة كلامه، فليس الحوار من صنف حوار اللغة باللغة، و إنما هو تواصل على مستوى الحكم والقيمة¹.

لهذه الأسباب أدخل "المسدي" ضمن عناصر تحديد النص شيئا آخر غير بنيته التركيبية، و هذا الشيء هو البنية الأدائية أو الإفضائية؛ ذلك أن النص و إن كان في ذاته بنية تركيبية؛ أي صياغة لغوية، يمكن أن تُلفظ تصويتا و يمكن أن تُدَوّن خطأ، فإنه إلى جانب ذلك -حسب رأيه- بنية أدائية، بل إن قيمته الأدبية كثيرا ما تكون رهينة المقام الذي يُسلك فيه، و هذه هي البنية الإفضائية التي تتوالج مع البنية التركيبية، و كلتاهما ذات أثر بليغ في عملية التلقي، سواء عبر الصوت أو الخط².

و من ثم فإن النص يتحدد حسب "المسدي" بأنه: تركيب و أداء و تقبل، أو ملفوظ و تلفظ و استقبال، فإن كان الأمر عبر الصوت تضافت كل العناصر على تحديد المقام، و إن كان عبر المخطوط، تدخلت عوامل عديدة أخرى لتحديد خصائص تلقي الإنسان للرسالة الأدبية المكتوبة، و تُعيّن عندئذ ما يُسمى بانقرائية النص، و لكل ذلك أثره في تحقيق الوقع الذي يُعرّف به الأدب. و الأمر لا يتوقف هنا عند خط نهائي في عملية التلقي؛ ذلك أن للمتلقي -حسب رأي المسدي- حالات متطورة تتدرج فيها علاقته بالنص تدرجا متنوعا؛ فللنص شأن عند مباشرته للمرة الأولى، ثم له شأن عند معاودته، و شأن ثالث عند اختزانه، و رابع عند الحديث عنه، و هو في كل مرة كأنما قد صار نصا جديدا³.

إن مناقشة "المسدي" لما جاءت به البنيوية بخصوص تعريف النص الأدبي، و تحديد مكن الأدبية فيه، مع تقديم إضافته الخاصة به في هذه المسألة، بتلك الطريقة التحليلية التعليلية، هو إضافة علمية لا تخفى أهميتها، خاصة و أن النقد العربي بحاجة إلى مثل هذه المراجعات و المناقشات للمنتوج النقدي الغربي، علّه يستطيع من خلال ذلك، أو بعد ذلك،

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 51.

² ينظر: نفسه، ص 52.

³ ينظر: نفسه، ص 52.

أن يتفرد بإنتاج نقدي هو من خاصته، و من صنع عقله، بحيث يتناسب مع نمط تفكيره، وطبيعة إنتاجه الأدبي.

5- مفارقة المنهج البنيوي لغيره من المناهج النقدية من حيث كيفية تناوله للإبداع الأدبي و هدفه من دراسته:

وضّح "المسدي" جديد البنيوية، في مقارنة بين كيفية تناولها للإبداع الأدبي و هدفها من دراسته، و بين كيفية تناول غيرها من المناهج السابقة عليها للإبداع الأدبي و هدفها من دراسته أيضا، مبيّنا في ذلك أصل التحول الذي أحدثته البنيوية في ميدان النقد الأدبي، بربط جديدها بأصوله في البحث اللغوي.

و خلاصة ما جاء به "المسدي" في هذا الشأن، يتملّ في أنه قد تم الانتقال في ميدان النقد الأدبي -بفعل البنيوية- من الاهتمام بـ"النص" إلى الاهتمام بـ"أدبية النص"، و بعد أن كان النص ثمرة علاقة خارجية، لأنه مرتبط بصاحبه، أصبحت أدبية النص ثمرة علاقة موضوعية بين النص و متلقيه، و بعد البحث عن أسباب نشوء النص، أنتقل إلى البحث عن الأسباب التي جعلت المتلقي له يتلقاه على أنه أدب¹.

و هذا التحول الملاحظ هو -حسب ما جاء به المسدي- قرين ما حصل في تاريخ المعرفة اللغوية؛ فبعد أن كان البحث في اللغة هو قبل كل شيء بحث في تاريخها، تم الانتقال إلى البحث في ذات اللغة، حيث أدركت الإنسانية أن البحث في تاريخ اللغة، هو أمر يختلف تمام الاختلاف عن البحث في ذاتها، كما أدركت أنه ليس لإحدى المعرفتين فضل على الأخرى؛ فالبحث في اللغة ذاتيا، ليس وفقا على معرفة ماضيها، و بالمقابل فإن البحث في تاريخ أي لغة، لا يقود بالضرورة إلى اكتشاف خصائصها المحايثة؛ أي تلك التي تتصل بجملة النواميس الداخلية التي يستقيم تماسك البناء فيها².

و عن رأي "المسدي" بخصوص جديد البنيوية هذا، في مقابل ما ساد قبلها، فإنه يظهر من خلال أقواله مساندا و موافقا لها فيما ذهبت إليه؛ حيث قال بوجود التفريق بين مفهوم الأدب و مفهوم تاريخ الأدب، و و جوب اعتبار أن كل ما يجري القول فيه مما يتصل بعلاقة النص بمقبله، هو من نقد الأدب؛ لأن النظر في الأدب من زاوية علاقته بمقبله،

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص52.

² ينظر: نفسه، ص52-53.

هو عمل يرمي إلى تعليل حصول الوقع الأدبي، و تفسير انبثاق الإحساس بأن اللغة قد استحالَت أداة للفن القولي، أما ما يُخاض فيه مما يتعلق بعلاقة النص بواقعه، إنما هو من تاريخ الأدب؛ لأن ربط النص بصاحبه، معناه البحث في تولد الحدث الأدبي، و بالتالي فإن الناقد في الحالة الأولى قام بنقد الأدب، أما في الحالة الثانية، فقد قام بالتأريخ له¹.

و يرى "المسدي" بأن: التمييز الذي قام به بين نقد الأدب و تاريخ الأدب له خير كبير على كليهما، و بأنه لا يعني وجود تناقض جذري بين المجالين، و إنما يعني اختلاف المدخل المنهجي من موقع لآخر، و باختلافه تتفاضل المقاييس المعرفية بشكل مبدئي².

و من تعبير "المسدي" عن رأيه بخصوص جديد البنيوية، انتقل إلى نقد المتعلقين بالقديم السائد قبلها؛ حيث قال عنهم بأنهم ((لم يعوا أن ربط الأدب بواقعه قضية على درجة معقدة من النسبية؛ فلأثر زمن معين، و لقراءته سياق محدد، ثم لتناوله عبر زمنه و سياقه ظروف مخصوصة، تتحكم فيها عوامل مرتبطة بوضع الناقد، و ليس شيء من ذلك بمطابق مع توابعه أو قرائنه))³.

و إذا كان هذا هو رأي "المسدي" بخصوص جديد البنيوية و القديم السابق عليها، فإن هناك من الباحثين و الدارسين من خالفه الرأي، و من أمثلتهم "نجيب العوفي"؛ حيث قال عن البنيوية: ((أضحى النص (الأدبي) في ضوئها نسقا لغويا صرفا، وطقوسا شكلية في المقام الأول، و هي إذ تبتز النص عن شروطه التاريخية و مكوناته المرجعية، و تنزع عنه ذاكرته الحية مكثفة بتفكيك أجزائه و تشريح كتلته، إنما تكتم أنفاس النص و تجمد زمنه، كما تجمد زمن النقد أيضا، حين يغدو وصفا محايدا و بريئا للنص وأعمدة مجهرية له، حين يغدو مجرد وسيلة لامتلاك جسد النص دون روحه و أعصابه))⁴.

أما "موريس أبو ناضر" فيبدو أن رأيه لا يختلف عن رأي "المسدي"؛ حيث ذهب إلى أن الدراسات الخارجية للنصوص الأدبية بسعيها إلى تفسير الأعمال الأدبية في ضوء سياقها الاجتماعي و التاريخي تقع في شراك شرح الأصول التي انبثق عنها الأدب، و تقف حائرة أمام وصف الأثر الأدبي بالذات، و تحليل بنياته و تقييم مدلولاته. لقد رأى بأنه مما لا شك

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص53.

² ينظر: نفسه، ص53.

³ نفسه، ص54.

⁴ نجيب العوفي، درجة الوعي في الكتابة (دراسات نقدية)، ص34.

فيه أن التاريخ و عوامل المحيط كلها تجتمع لتصوغ الأثر الأدبي، لكن المشكلات الفعلية في تحليل النصوص تبدأ عند تقييم و مقارنة و عزل العوامل الفردية التي يفترض فيها تحديد العمل الفني عن العوامل التي تحدّد أطره الخارجية¹.

و بالإضافة إلى التوضيح السابق المتعلق بجديد البنيوية، فقد بين "المسدي" أيضا تبّعات محاولة تخطي البنيوية للعقبة المتمثلة في ربط الأثر الأدبي بصاحبه مقارنة بمدى ارتباطه بقارئه، و وضح موقفه الشخصي من هذه المحاولة و نتائجها.

و مفاد ما جاء به في هذا الشأن، يتمثل في أنّ محاولة تخطي البنيوية للعقبة المتمثلة في ربط الأثر بصاحبه مقارنة بمدى ارتباطه بقارئه، قد نتج عنها انقسام البنيوية إلى بنيويتين، إحداهما تحاول الاندراج في الزمن، و الأخرى تقف عند مقومات الحالة الآنية².

و قد رأى "المسدي" بأن هذا الانقسام، كانت له إيجابياته، كما كانت له سلبياته أيضا، وتتمثل سلبياته -حسب رأيه- في إيجاد قطيعة معرفية ظلت ثغراتها تتكشف بين الفينة والأخرى، أما إيجابياته فقد تمثلت في محاولة تطعيم الموقف البنيوي بالرؤية النشئية؛ إذ يتركز الاهتمام على النص في ذاته، و على النص من خلال زمن إنشائه في الوقت نفسه؛ ذلك أنّ تكوّن النص و الانسلاخات التي يمر بها قبل أن يبلغ تمامه لمّا يُشكل تحولات بنيوية هامة، إذا ما تمّ تقصي تعاقبها تحدّدت ملامح البناء النسقي الذي يُراد الوقوف عنده³.

و معنى ذلك هو أن "المسدي" ينتصر للبنيوية التكوينية أكثر من انتصاره للبنيوية الشكلية. و قد كان "تجيب العوفي" منتصرا للبنيوية التكوينية أكثر من البنيوية الشكلانية أيضا؛ حيث قال عند تعبيره عن موقفه منهما: ((أبدي تحفظي خاصة تجاه البنيوية الشكلانية كما تتجلى في المدرسة البارتيّة، مستثنيا من هذا التحفظ البنيوية التكوينية كما تتجلى في المدرسة الغولدمانية، و يخامرني شعور قوي بأنّ البنيوية الشكلانية في مجال النقد العربي المعاصر خاصة، لن تعمّر طويلا، و لن تغير الزمن النقدي العربي، كما تأمل تغييرا بنيويا جذريا،

¹ مورييس أبو ناصر، الألسنية و النقد الأدبي (في النظرية و الممارسة)، دار النهار، بيروت، 1979، ص5-08. نقلًا عن: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص92.

² ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص53.

³ ينظر: نفسه، ص53.

ولن تزيد عن كونها زوبعة في فنان الفكر العربي كبقية الزوابع التي هبت على هذا الفنان و موجت فيه السطح من غير أن تموج في العمق¹.

ب- إشكالية الممارسة:

تناول "المسدي" إشكالية الممارسة من خلال النقاط التالية: جديد البنيوية على مستوى الممارسة النقدية، أسباب ظهور إشكال في الممارسة النقدية البنيوية، مختلف مشاكل الممارسة النقدية البنيوية: مشكل المصطلح المعبر عن خصوصية الدراسة النقدية البنيوية، مشكلة عدم مؤالفة النقد البنيوي للأدب، مشكلة عدم التوافق بين الشقين النظري و التطبيقي للبنيوية.

1- جديد البنيوية على مستوى الممارسة النقدية:

يرى "المسدي" بأن أهم تحول أنجزته البنيوية في مستوى ممارستها التطبيقية، هو أن النقد معها أصبح يبحث في الأدب، بعد أن كان يبحث عن الأدب. و هي في تناولها للإبداع الأدبي تتطرق -حسب رأيه- من التساؤل عن كيفية اقتحامه، لا لمجرد فهمه، و إنما لتعيين مسالك الولوج إليه، بحيث غدت طريقة الإدراك معها ذات أهمية بالغة، لعلها تحتل الأولوية قبل عملية الإدراك ذاتها. و تتمثل مراحل استنطاقها النقدي للنص الأدبي في الوصف أولاً؛ و هو مستوى الحوار مع اللغة في بنيتها التركيبية، ثم التفسير، و فيه يقع البحث عن القرائن المتحكمة في نسيج اللغة عند تحولها إلى حدث أسلوبية، و بعده يتم رسم الأبعاد الدلالية في مسالك متنوعة من احتمالات الفهم و فرضيات التأويل².

و "المسدي" يرى أن البنيوية و من خلال تعاملها مع النص الأدبي بهذه الطريقة، قد أزاحت ما أحاط بالأدب من هالة قداسية، كثيراً ما كانت تقوم عائناً حيال الرؤية الموضوعية المتأنية³.

و يوضّح "عبد العزيز السمري" كيفية تناول البنيوية للعمل الأدبي في قوله: ((البنيوية إذن، طريقة وصفية في قراءة النص الأدبي، تستند إلى خطوتين أساسيتين وهما: التفكيك والتركيب، كما أنّها لا تهتم بالمضمون المباشر، بل تركّز على شكل المضمون وعناصره وبنائه التي تشكّل نسقية النص في اختلافاته و تآلفاته. و يعني هذا، أن النص عبارة عن

¹ نجيب العوفي، درجة الوعي في الكتابة (دراسات نقدية)، ص33.

² ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص55.

³ ينظر: نفسه، ص55.

لعبة الاختلافات، و نسق من العناصر البنيوية التي تتفاعل فيما بينها وظيفيا داخل نظام ثابت من العلاقات، و الظواهر التي تتطلب الرصد المحايد (أي المنعزل عن أي سياق خارجي)، و التحليل الآني الواصف من خلال ثنائية الهدم و البناء، أو تفكيك النص الأدبي إلى تمفصلاته الشكلية و إعادة تركيبها، من أجل معرفة ميكانيزمات النص و مؤلّذاته البنيوية العميقة قصد فهم طريقة بناء النص الأدبي))¹.

و يوضّح أيضا "محمد بنيس" كيفية معالجة البنيوية للنص الأدبي في قوله: ((و ينصب البحث عند البنيويين على اكتشاف القوانين الداخلية للنص، تلك التي ميّزته عن اللغة العادية و حوّلتها إلى إحياء))².

و كذلك "عبد العزيز حمودة"؛ حيث يقول عن عملية التحليل البنيوي أنها: ((تطمح أصلا إلى اكتشاف قواعد التركيب و آلية المعنى (تشكيل المعنى))³، و هو ما يظهر جليا في قراءات البنيويين من خلال ((تجاهلهم لعملية تحديد المعنى أو الدلالة، و تركيزهم على كيف تؤدي الدوال وظائفها))⁴.

و هدف الناقد البنيوي من تناوله للنص الأدبي بالدراسة و التحليل، مماثل لهدف اللغوي البنيوي من دراسته للغة؛ ذلك أن هذا الأخير ((يركّز على كيفية تحقيق الدلالة، و كيف يحدّد النظام الكلي قدرة البنى الصغيرة على الدلالة، لكنه لا يكثر كثيرا للدلالة نفسها، فليست من مهام اللغوي البنيوي التوقف عند أكثر من "كيف" يتم تحقيق الدلالة))⁵.

و قد ذهب كل من "ميجان الرويلي" و "سعد البازغي" إلى أن إهمال البنيوية للمعنى كان من أهم ما أوخذت عليه⁶.

2- أسباب ظهور إشكال في الممارسة النقدية البنيوية:

رأى "المسدي" أنه قد ظهرت بعض المشاكل في ممارسة نقد بنيوي على الإبداع الأدبي، نتيجة الانتقال النوعي الذي عرفه النقد الأدبي مع هذا المنهج الجديد، فبعد أن كان النقد

¹ عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، ص 187.

² محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية تكوينية)، ص 21.

³ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)، ص 205.

⁴ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 159.

⁵ نفسه، ص 176.

⁶ ينظر: ميجان الرويلي و سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا و مصطلحا نقديا معاصرا)،

يبحث في بنية سياق النص، صار يبحث في بنية النص، و معلوم أن منطق سياق النص يختلف عن منطق النص؛ ذلك أن الأول منطق خارجي، في حين أن الثاني منطق داخلي¹.

3- مختلف مشاكل الممارسة النقدية البنيوية:

تتمثل أهم المشاكل التي عرفتتها الممارسة النقدية البنيوية -حسب ما جاء به المسدي- في التالي: مشكل المصطلح المعبر عن خصوصية الدراسة النقدية البنيوية، مشكلة عدم مؤالفة النقد البنيوي للأدب، مشكلة عدم التوافق بين الشقين النظري و التطبيقي للبنيوية.

3-1 مشكل المصطلح المعبر عن خصوصية الدراسة النقدية البنيوية:

يعد مشكل المصطلح أول مشكل في هذا الشأن، و يتمثل -حسب المسدي- في محاولة إيجاد البنيوية لمصطلح معبر عن خصوصية دراستها للإبداع الأدبي، مع تجنبها في ذلك مصطلح "النقد"، لما لابسه من معايير مختلفة قد تحيد به عما ارتسمه المنهج البنيوي من موضوعية²، لكن البنيوية -حسب رأي المسدي- لم توفّق في مسعاها هذا، و مرد ذلك - حسب تعليقه- هو أن المصطلحات التي ابتكرها روادها من أجل تجسيم التحول المبدئي عن المسلك السائد، كانت في كل مرة تؤدي إلى فهم خاطئ للمنهج البنيوي بعكس المطلوب منها، و من أمثلة هذه المصطلحات ما يلي³:

- مصطلح "مقاربة" أو "تناول" أو "معالجة" النص: لقد تم اختيار هذه المصطلحات باعتبار أنها تتم عن طبيعة العلاقة التي تتأسس بين النص و فاحصه؛ من حيث هي لقاء مخصوص ذو مقصد هادف، إلا أنها أوحى في المقابل بالافتقار إلى الارتباط الحميمي بروح النص؛ إذ و كأنها تعبر عن ملامسة تخشى الالتحام الكامل بالمادة الأدبية.

- مصطلح "معاودة الكتابة" أو "إعادة الكتابة": عندما استعملت البنيوية مصطلح "كتابة" كمفهوم محدد لهوية الأدب، أصبحت عملية نقده بمثابة "معاودة كتابة" أو "إعادة كتابة" له، لكن هذا المصطلح كانت له تبعاته السلبية؛ حيث نتج عنه أن تراخت الرابطة فيه بين النص و الناقد، بعد أن تراخت معه الرابطة بين الناقد و صاحب النص؛ و من ثم أصبحت العلاقة متركزة تماما على النص النقدي بصرف

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص54.

² ينظر: نفسه، ص54.

³ ينظر: نفسه، ص54-55.

النظر عن امتداداته الأولية. هذا من جهة، و من جهة أخرى فقد كان هذا المصطلح سببا في بروز فكرة "تسبة الإمام بكنه الأثر الأدبي"؛ حيث قيل بأن لكل نص قارئ، و لكل قارئ قراءة، و لكل قراءة سياق يحكمها، ثم لكل لحظة من لحظات القراءة عوامل متجاذبة، فيها موضوع النص، و فيها نسيجه، و فيها كذلك تجربة الذات القارئة في لحظة قرائتها، الأمر الذي كان من نتائجه أن ترامت أطراف العملية النقدية، بحكم تعدد القراءات للنص الواحد و مع القارئ الواحد، و كاد المنهج يقع في لعبة التفكيك والتركيب و ما يرافقها من سحر الإغراء على نسق لعبة المكعبات، التي تحول أجزاء النص إلى "شطرنج" من العلامات.

3-2 مشكلة عدم مؤلفة النقد البنيوي للأدب:

لقد تم التشكيك -حسب ما جاء به المسدي- في مدى مؤلفة النقد البنيوي للأدب، وذلك نتيجة اختلاف مهمة الناقد في المنهج البنيوي، عن مهمته التي كان يضطلع بها في المناهج السابقة عليه؛ فبعد أن كان الناقد وسيطا بين المؤلف و القارئ؛ مرّة يتجه للقارئ باسم صاحب النص، و مرة يعود على الأديب باسم قُرَّائه، في محاولة منه لتهديب الذوق و صقل المدارك و كشف أسرار الفن، لم يعد مع البنيوية يتجه بما يكتبه لا إلى الأديب صاحب النص، و لا إلى قارئه الطبيعي، و إنّما أصبح يتّجه بنقده إلى رفيقه الناقد، مقيما و إياه حوارا خاصا قد لا يشاركهما في دواله و رموزه و علاماته غيرهما¹.

و يوضح "صلاح فضل" بشكل أفضل الاختلاف الحاصل في مهمة الناقد بين المناهج السابقة على البنيوية، و مع البنيوية؛ حيث يقول: ((إن مهمة الناقد ليست اختبار مدى مصداقية الكاتب بالنسبة لعلاقته بالمجتمع، كما كان النقد الإيديولوجي يحصرها في هذا النطاق، إنّما أصبحت مهمته أن يختبر لغة الكتابة الأدبية، يرى مدى تماسكها وتنظيمها المنطقي و الرمزي، و مدى قوتها أو ضعفها بغض النظر عن الحقيقة التي تزعم أنها تعكسها أو تعرضها في كتاباتها))².

و من خلال التحول الحاصل في مهمة الناقد، فسّر "المسدي" العقدة التي حصلت بين رواد البنيوية و كثير من أبناء النخبة الثقافية المتألفة. و قد رأى بأنه كتحول حاصل، كان

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 56.

² صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص 90.

تحولاً لا بد منه، و لم يهमे إن كان مقصوداً أم لا، و لا إن كان النقاد واعين به أم غير واعين، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حين عبّر عن قبوله لأن أن يكون النقد حواراً بين أهل الاختصاص، فقط لو استقام بينهم، فحتى أهل الاختصاص من النقد -حسب تقييمه- لم يستقم الحوار النقدي بينهم، لأنهم لم يتحلوا بالروح الجماعية التي تساعدهم على سد ثغرات المنهج البنيوي إبان الممارسة النقدية، فإصرارهم الفردي لم يترك مجالاً لإرساء مقومات التكامل الجماعي¹.

و "المسدي" بتشخيصه لهذا الواقع النقدي القائم بين أهل البنيوية، إنما يتوجه بدعوة لهم، مفادها التخلي عن النزعة الفردية و التحلي بالروح الجماعية، و معلوم ما لهذه الأخيرة من دور فعّال في الارتقاء بالعلوم و المعارف، و من مظاهرها مثلاً اتفاق أهل الحقل المعرفي الواحد على جملة من المصطلحات المفاتيح بحيث لا يُستعمل غيرها، دالاً كان أو مدلولاً... الخ.

و إذا كان "المسدي" يرى بأن لغة النقد قد أصبحت معقّدة بعض الشيء مع البنيوية، مما قد يحسب عليها، فإن هناك من الدارسين من وافق هذا التغيير في لغة النقد و أشاد به، و من بينهم "عبد الناصر حسن محمد"؛ حيث رأى بأن لغة النقد قد أصبحت مع البنيوية تتميز بروح العلم والدقة و المنهجية في مقارنة الأعمال الإبداعية².

3-3 مشكلة عدم التوافق بين الشقين النظري و التطبيقي للبنيوية:

قام "المسدي" بتشخيص هذه المشكلة، ثم وضح أسبابها، و أهم الحلول التي جاءت بها البنيوية من أجل تفاديها.

ماهية المشكلة و أهم أسبابها:

تتلخص هذه المشكلة -حسب المسدي- في عدم قدرة البنيويين على الإمساك بدلالة النص الأدبي؛ بحيث تكون هذه الدلالة شاملة له ككل و متناسبة في الوقت ذاته مع أهم المعالم الأسلوبية فيه.

و ترجع أسباب هذه المشكلة إلى عدم قدرة البنيويين على تحقيق مبدئين نظريين اثنين على مستوى التطبيق؛ فمن المبادئ النظرية للمنهج البنيوي، خصوصية البنى الذرية ضمن

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 56-57.

² ينظر: عبد الناصر حسن محمد، نظرية التواصل و قراءة النص الأدبي، المكتب المصري، القاهرة، 1999، ص 37. نقلًا عن: عبد العزيز السمري، مناهج النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، ص 217.

تركيب البنية الكلية، الأمر الذي مفاده أن دراسة الناقد البنيوي للنص الأدبي تكون يبحثه عن بنية النص الشاملة، من خلال بحثه عن البنى الفرعية له، باعتبار أن هذه الأخيرة تتوالج لتجسّم النسق الجملي الذي يقوم عليه النص¹.

و هذا الأسلوب الذي اعتمده المنهج البنيوي على مستوى التطبيق، كان متناسبا ومنسجما تماما مع المبدأ النظري له، غير أن توسل النقاد به -حسب تقدير المسدي- لم يؤد إلى النتائج المطلوب تحقيقها؛ حيث أدى اعتمادهم عليه -في كثير من الأحيان- إلى اقتطاع الجزء من الكل، و من ثم تبددت صورة الشمول، و حلت محلها خلايا بنيوية متناثرة لا رابط يجمعها².

و قد ردّ "المسدي" أسباب عدم تمكن البنيويين من العثور على السلك الجامع بين البنى الذرية في النص الأدبي إلى: طبيعة العلاقة بين المعرفة اللغوية و المعرفة الأدبية؛ ذلك أن الكلام الطبيعي -حسبه- يتأسس في تشكيلته الذرية على الجملة النحوية، بينما يتأسس الكلام الأدبي على الجملة الأسلوبية، غير أن سلامة الكلام الأدبي مشروطة بامتثاله لحدود البناء النحوي في اللغة، و الذي أعوز النقد البنيوي هو ضبط المقاييس التي تمكن من السيطرة على مشكل الدلالة داخل الجملة الأسلوبية و دون اختراق لمعايير النحوية³.

و من المبادئ النظرية الأخرى، مبدأ الولوج إلى بنية النص الدلالية من خلال بنيته التركيبية، و هذا الجانب النظري يتتافى - حسب رأي المسدي- مع الواقع العملي؛ ذلك أنه يصدّق في أول اتصال للقارئ بالنص، أما إذا تعلق الأمر بالناقد، فهو في ممارسته النقدية كأنما يصطنع عدم إدراكه للمضمون ليحاول تبرير الوصول إليه من خلال النسيج اللغوي، وبالتالي فالنقد هنا لم يكن مباشرة أولية للنص بالمعنى الزمني المطلق، نظرا لأن الإدراك الجملي سابق لاعتزام العملية النقدية، و لذلك أيضا يبقى خيط الاقتزان بين عملية تفكيك النص و حصيلة تلك العملية عقدة جوهرية في ربط دلالة النص بأدبية دلالاته⁴.

يقول "عبد العزيز حمودة" في هذا الشأن، لقد ((تمثّل فشل البنيوية الجوهرية في نهاية المطاف، في قدرتها المكتسبة الجديدة على تحقيق تحليل لغوي بنائي للنص، مع فشل كامل

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص57.

² ينظر: نفسه، ص57.

³ ينظر: نفسه، ص57.

⁴ ينظر: نفسه، ص58.

في تحقيق معنى النص))¹، و قد فصّل "عبد العزيز حمودة" أكثر ما ذهب إليه هنا، حين راح يقول في موقع آخر من كتابه: ((إن فشل البنيوية الحقيقي، و الذي تلتقي عنده ألوان القصور المختلفة في التحليل البنيوي هو عجز المنهج عن تحقيق المعنى، برغم أن محوري النقد الحديث كله هما اللغة و المعنى، و إذا سلّمنا بكفاءة المنهج البنيوي في تقديم تحليل منهجي علمي للغة، فمن الصعب التسليم بكفاءته في تحليل النصوص الأدبية و إنارتها بالمعنى. إن البنيوية الأدبية شأنها في ذلك شأن البنيوية اللغوية، تتبع منهجا معكوسا عند مقاربتها للنص الأدبي، فالمنهج لا يبدأ بالجزئيات و تحليلها بغية الوصول إلى كليات أو أنظمة، و لكنه يبدأ بالنظام الذي يحكم الإبداع في القول، لينتقل إلى الدرجة الأدنى على سلم التحليل و هو النص، ثم الوحدات التي تليها العناصر، وهي أصغر مكونات النص، و قد يسترجع الناقد البنيوي بعد ذلك خطواته متحركا من أصغر العناصر تجاه النسق أو النظام، ليقارن بين الخاص (النص) و العام (النظام))².

الحلول التي جاءت بها البنيوية:

وضّح "المسدي" أهم الحلول التي جاءت بها البنيوية من أجل تخطي هذا المأزق، و قد تمثلت -حسبه- في ابتكارها لصيغ جديدة في المعالجة أهمها: "الإحصاء" و "التشكيل الصوري"، و قد اعتبرهما مشكلان تطبيقيان أكثر منهما حلان إجرائيان.

الإحصاء:

تتمثل عملية الإحصاء -حسب ما جاء به المسدي- في أن يقوم الناقد البنيوي عند تناوله للنص الأدبي بعمليات إحصائية، تتناول الأصوات و المفردات و الصيغ التركيبية. وما يدفعه إلى اعتماد هذه الطريقة هو بحثه الدائم عن توظيف التواتر ضمن شبكة العلاقات التي يتألف منها نسيج النص، علاوة عن رغبته في تحقيق الموضوعية³.

و قد رأى "المسدي" بأن هذه العملية كان لها الفضل في عقلنة المنهج النقدي، إلا أن غفلة النقاد عن بعض الاحتياطات التي كان من الواجب عليهم أخذها بعين الاعتبار عند

¹ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)، ص158.

² نفسه، ص244.

³ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص58.

استعمالهم لها، قد أدى بهم إلى مزلق ومشاكل أخرى عديدة¹. معنى ذلك أن هذه الوسيلة كانت لها إيجابيات كما كانت لها سلبيات في نظر "المسدي".

و تتمثل الإيجابيات حسب رأيه في:

- أن عملية الإحصاء بما يستتبعها من نسب حسابية و مقارنات عديدة، تقترن أساسا بمقومات النسيج اللغوي، و لذلك فهي مرتكز هام من مرتكزات خصائص الأسلوب الأدبي².

أما السلبيات فإنها تتجلى حسب اعتقاده في الآتي:

- اعتماد البعض على عملية الإحصاء بشكل كبير، وصل إلى حد حوصلتهم لنتائجهم في شكل معادلات رياضية، تتدرج من أبسط الصور إلى أشدها تعقيدا، و هذا ما ولد نفورا عند المعترضين، و لولا خصوصية الخطاب النقدي البنيوي بصفته موجها للنقاد ضمن الانتماء المنهجي الواحد، لما وُجد ما يُرد به على المناقضين و المعترضين³.

- تحول عملية الإحصاء على يد الكثير من النقاد إلى أداة شكلية؛ حيث ظنوا بأن فاعليتها على مستوى وصف النسيج اللغوي للنص، يمكن أن تتحقق على مستوى البنية الدلالية؛ حيث اعتقدوا مثلا بأن تواتر ذكر الشيء يتناسب طرديا مع أهمية توفير أدبية النص. لكن تكرار الدال الواحد لا يعني تكرار المدلول نفسه، كما أن المدلول الواحد قد يتكرر من خلال دوال مختلفة، و في كل الحالات قد يصل التواتر حدا يبلغ معه درجة من التشبع بحيث تتقلب أهميته بعكس ما يظن الناقد، بل إن الأبلغ هو إمكانية أن تتناسب أهمية مضمون من المضامين عكسيا مع تواتر إيراد اللفظ الدال عليه، فتكون إحدى ميزات اللغة الأدبية تعويلها على طاقتها الإيحائية بدل التصريحية، و لذلك وجب الانتباه إلى المعنى المتواري بقدر الانتباه إلى المعنى المنكشف⁴.

إن "المسدي" و عند توضيحه لسلبيات عملية الإحصاء و إيجابياتها، في سياق بحثه عن مدى فائدتها و فاعليتها، ظهر كمدافع عن البنيوية، أو إن صح التعبير كأحد المنتسبين

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص58.

² ينظر: نفسه، ص58.

³ ينظر: نفسه، ص58-59.

⁴ ينظر: نفسه، ص 59.

لها، أكثر من كونه دارسا محايدا يبحث في حقيقة مسألة ما، و هذا ما يُصدِّقه قوله -عند ذكره للسلبية الأولى من سلبيات عملية الإحصاء- ((و لولا ما أسلفناه من أن أحد تحولات النقد الحديث، أن الناقد أصبح يخاطب رفيقه الناقد...لما وجدنا ما به نواجه المعارضين والمناقضين))¹، و هذا لا ينفي أبدا موضوعية "المسدي" و واقعيته في طرحه و معالجته لهذه المسألة.

التشكيل الصوري:

يتمثل التشكيل الصوري -حسب ما جاء به المسدي- في لجوء الناقد البنيوي إلى تجسيم بعض استخلاصاته أو مضامينه في رسوم بيانية، أو تشكيلات هندسية، أو تشخيصات علامية².

و قد عبّر "المسدي" عن رأيه بخصوص مدى فاعلية هذه الطريقة و نجاعتها، بحسب مختلف الوظائف التي تؤديها، عند النظر إليها بصفة متدرجة³:

- في مرتبة أولى، تؤدي عملية التشكيل الصوري وظيفة الوصف الخارجي، و من ثم فهي ليست إلا وسيلة من وسائل الإيضاح التي تعد إطنابا، لأنها تحاول فقط تأكيد الفكرة الواحدة في غير تكرار صريح.

- في مرتبة ثانية تؤدي عملية التشكيل الصوري وظيفة استنباط لغة ثانية يعبر بها الناقد عن مقصده، بعد أن عبّر عنه باللغة الطبيعية، و هي ذات فائدة هنا، حيث تتمثل أهميتها في ترويض النقد على المهارات التواصلية المختلفة، مما يترسب معه في الذهن مزيج علامي يُحدث وقعا لا يحدثه النسق اللغوي المتفرد.

- في مرتبة ثالثة تؤدي عملية التشكيل الصوري وظيفة تجريد النقد من ملابس اللغة بين الحقيقة و المجاز، حيث تسمح للناقد البنيوي بحوصلة موقفه النقدي مع الإفلات من قبضة اللغة باعتبارها معينا توليديا لظلال من المعاني.

إن هدف "المسدي" من توضيحه لمدى أهمية عملية التشكيل الصوري، هو نفي ما تولّد من احتراز تجاهها، من قبل المعارضين و بعض المناصرين للمنهج البنيوي⁴، وبالتالي فإنه

¹ عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص58-59.

² ينظر: نفسه، ص59.

³ ينظر: نفسه، ص59-60.

⁴ ينظر: نفسه، ص59.

يظهر هنا، مدافعا عن البنيوية مجددا. وربما حتى السلبيات التي أوضحها بخصوص هذه العملية؛ أي عملية التشكيل الصوري، وبخصوص عملية الإحصاء، لم يكن إيرادها إلا من باب الدعوة إلى تجاوزها، أو البحث عن بدائل أخرى، أكثر فاعلية للنهوض بالمشروع البنيوي.

و قد نفى العديد من الباحثين الفاعلية عن مختلف الوسائل التي يستخدمها النقد البنيوي، من إحصاء و جداول و رسوم بيانية...، و هو ما عبّر عنه كل من "ميجان الرويلي" و "سعد البازغي" حيث قالوا بأنه من أهم الاتهامات السلبية التي وجهت للبنيوية، اعتبار أن ((البنيوية ليست علما، و إنما هي شبه علم يستخدم لغة و مفردات معقدة و رسوما بيانية و جداول متشابكة، تخبرنا في النهاية عمّا كنا نعرفه مسبقا، فالبنيوية ليست فقط مضيعة للجهد والوقت، و إنما هي أذى ضار يسلب الأدب والنقد خصائصهما و سماتهما الإنسانية))¹. و "ثامر إبراهيم محمد المصاورة" رأى بأن البنيوية ((و بواسطة هذه الرسوم البيانية والجداول هدمت الجانب العاطفي في الأعمال الأدبية، و جعلت الأدب عقلانيا في دراسته، و هذا بدوره أدى إلى خروج الأدب عن غايته، و حشده في زاوية يكون بلجوئه إليه بعيدا عن عالم الإنسانية (الشعور))².

لقد صرّح "المسدي" عند مناقشته لهذه المشكلة (التي كان الإحصاء و التشكيل الصوري بعضا من الحلول المقترحة من أجل تجاوزها) بأن معيار الحكم على مدى توفيق المنهج البنيوي أو انحساره، هو قدرته على الإمساك بالدلالة الشاملة للنص مع تناسبها و أهم المعالم الأسلوبية فيه³. و الذي يبدو من خلال تحليله السابق، هو أن المنهج البنيوي قد فشل إلى حد ما في تحقيق ذلك.

ج- إشكالية القيمة:

قام "المسدي" عند مناقشته لإشكالية القيمة، بتحديد: جديد البنيوية بخصوص هدفها من دراسة النص الأدبي، مشاكل البنيوية على صعيد القيمة: مشكلة تعدد المفاهيم المحددة

¹ ميجان الرويلي و سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا و مصطلحا نقديا معاصرا)، ص75.

² <https://www.google.com>، ثامر إبراهيم محمد المصاورة، البنيوية بين النشأة و التأسيس (دراسة نظرية)، ص51، 2016/02/16، 09:20.

³ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص57.

لغائية النقد و مشكلة معنى الموضوعية المنشودة من طرف المنهج البنيوي، مدى تحقيق البنيوية لهدفها من دراسة الأدب.

1- جديد البنيوية بخصوص الهدف من دراسة النص الأدبي:

لقد اعتزم المنهج البنيوي -على حد قول المسدي- تحقيق الموضوعية بوصفها البديل الاعتراضي على مسلك الارتسام الذاتي، و نهج الانطباع الشخصي، والموضوعية المبحوث عنها من طرفه ليست موضوعية البناء الأدبي، و إنما هي موضوعية اختراق النص الأدبي و التسلل إلى مضانه، و لذلك فالمنهج البنيوي يبدأ بالقراءة و يمر إلى النقد ليصل النمط المنشود الذي هو علم الأدب¹.

2- مشاكل البنيوية على صعيد القيمة

1-2 مشكلة تعدد المفاهيم المحددة لغائية النقد:

وضح "المسدي" ماهية هذه المشكلة، ثم المظاهر التي تجلت فيها، و بعدها بيّن الحلول التي أوجدتها البنيوية من أجل الخروج منها و تجاوزها.

و تتمثل هذه المشكلة -حسب المسدي- في: تعدد المفاهيم المحددة لغائية النقد البنيوي، حيث أنه لكل مفهوم وجهة نظر خاصة في ضبط أطراف العملية النقدية².

و تتجلى هذه المفاهيم في التالي³:

- إستجلاء "أدبية" النص: و معناه الاحتكام إلى النص في ذاته.
- إكتشاف "شعرية" القول الأدبي: و معناه البحث أساسا في الوقع الذي يحدثه النص على القارئ.
- إستكناه "إبداعية" النص الأدبي: و معناه الإقرار المتجدد بعلاقة النص بوضعه عن طريق إدراك المتلقي لميزاته.

و لما خيف من أن تتحرف إحياءات هذه المصطلحات عن غائية النقد البنيوي، جيء ب: مصطلح "الكتابة": بحثا عن براءة اللفظ، و لمّا لم يصدق هذا الحل، تم الالتجاء إلى صياغة مجانسة للموقف المعرفي الصريح، فقيل إن وظيفة النقد هي "تأسيس علم الأدب"؛

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص60.

² ينظر: نفسه، ص60.

³ ينظر: نفسه، ص60.

ما معناه أن موضوع النقد ليس التاريخ، لأن للتاريخ علماء، و ليس المجتمع، لأن للمجتمع كذلك علماء، و ليس المقومّات النفسية الحافزة عند الأديب، لأن لها أيضا ما غيرها¹.

2-2 مشكلة معنى الموضوعية المنشودة من طرف المنهج البنيوي:

شخص "المسدي" هذه المشكلة، ثم قام بحلها و توضيح ما التبس فيها.

و تتمثل هذه المشكلة -حسبه- في تزوج الفهم الشائع بين الموضوعية كنسبة إلى الموضوع، و الموضوعية كاعتراض على أن يصل النقد إلى الإفضاء بحكم في شأن الأدب، و هذا الأخير -حسب تقديره- هو الفهم الذي شاع بين الناس جاعلا من الموضوعية رديفا للحياد، و من الحياد جنيسا للانسلاخ من المسؤولية².

و من أمثلة الباحثين الذين رأوا بأن الموضوعية في البنيوية هي رديف للحياد، "نجيب العوفي"، ففي سياق تعدادة لمثالب البنيوية الشكلانية قال: ((و حين تنتفي الوظيفة المعيارية للنقد، و تصبح وظيفة حيادية في المقام الأول، يستوي النص الجيدّ والنص الرديء، يستوي الماء و الخشبة في مجال الكتابة الإبداعية، و يصبح النقد خاليا من النقد))³.

و عن رأي "المسدي" بخصوص هذا الفهم الشائع، فإنه يظهر من خلال أقواله مُنافٍ له، أو بتعبير أصح مُصحّحاً له؛ حيث فرق بين النقد السابق للبنيوية، و النقد مع البنيوية، وقال بأن الحكم النقدي بمعيار القيمة كان فيما مضى ضروريا، لأنه يخص الأديب و يُعمم على محيطه التاريخي ثقافيا و حضاريا. لكنه لم يعد كذلك مع النقد الحديث، لأن ضرورته ظلت في حدود القارئ الناقد، أو من تقمّص موقفة فقام مقامه⁴.

3- مدى تحقيق البنيوية لهدفها من دراسة الأدب:

إن هدف النقد البنيوي -كما وضحه المسدي- هو تحليل مادة الأدب التي هي مادة غير عقلانية بحكم اندراجها في سياق الفن تحليلا يتوسّل بمنهج عقلاني بما أنه يحرص على الاحتكام إلى معايير موضوعية. و يحرص النقد البنيوي -حسب المسدي- على مماثلة علم اللغة في مسعاه البعيد نحو إدراك النواميس العامة للظاهرة الأدبية؛ فاللسانيات تتناول مقومّات الكلام الفردي و تستنبط منه مقومّات اللسان، لتستنبط نواميس الظاهرة اللغوية

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 60-61.

² ينظر: نفسه، ص 61.

³ نجيب العوفي، درجة الوعي في الكتابة (دراسات نقدية)، ص 34.

⁴ ينظر: عبد السلام المسدي، المصدر السابق، ص 61.

العامة فيما يسمى بالكليات. و كذلك اعترم النقد عندما أوكل لعلم الأدب البحث في الكليات العامة التي يتحول بها الكلام إلى أدب¹.

و قد بيّن "عبد العزيز السمري" كيفية التحليل البنيوي للنص الأدبي من خلال توضيحه لكيفية التحليل البنيوي للنص اللغوي، بما يجعل هدف البنيوية في ميدان النقد الأدبي مماثلاً لهدف البنيوية في دراسة اللغة، يقول: ((أما عن كيفية تناول البنيوي كما هو عند اللغويين، فالتحليل البنيوي اللغوي يقوم عند تعامله مع النص اللغوي بالبداية من نقطة صغرى، فيبدأ بتحديد العناصر التي ربما لا يكون لها معنى مثل الفونيمات، و هي أصغر عناصر تكوين اللغة، ثم ينتقل لرصد تجميع هذه العناصر في وحدات ذات معنى و هي الكلمات، ثم كيف تجمع هذه الوحدات الدلالية الصغرى في نظام أوسع أو نسق أكبر و هو اللغة، إلى هنا بدأنا بعناصر ثم تحولنا إلى وحدات صغرى - أصغر الوحدات اللغوية ذات الدلالة - و هي الكلمات، لكن الكلمة بمفردها معزولة خارج نسق لا يمكن إلا أن تدلّ أو تشير إلى وحدة أخرى معزولة، و لهذا نتحول إلى النسق الأصغر و هو الجملة، داخل النسق الأصغر تصبح الوحدة الصغرى جزءاً من نسق دال وتكتسب دلالتها الأوسع من علاقتها مع الوحدات الأخرى داخل النسق. من ثم يبدأ تطبيق النسق العام للغة، و هو قواعد النحو التي تحكم علاقة الوحدات بعضها ببعض، و هي العلاقات التي تحدّد معاني الوحدات أيضاً، ثم يتم ربط هذه الجمل أو الأنساق الصغرى وتجميعها داخل نسق أكبر هو النص، في النسقين السابقين تتحدد الدلالة الوحدة (الكلمة في الجملة و الجملة في النص) عن طريق علاقاتها مع الوحدات الأخرى في ظل مبدأ اتفاق عليه البنيويون جميعاً، و هو التضادات الثنائية (oppositions binary)، و هناك نسق ثالث هو النسق العام أو النظام الذي يحكم الإنتاج الفردي للنوع، و هو نسق نتحرك في اتجاهه انطلاقاً من النصوص الفردية، أو ننطلق منه في اتجاه نص فردي في تحليل تطبيقي يؤكد اتفاق النص المفرد أو النسق الأصغر أو اختلافه مع النسق أو النظام العام... هكذا مضى التحليل البنيوي للغة، وسار على هديه النقد البنيوي في التحليل الأدبي))².

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 61.

² عبد العزيز السمري، اتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن العشرين)، ص 191-192.

و قد رأى "المسدي" عدم إمكانية تحقيق البنيوية الأدبية لهدفها بعيد المدى المماثل لهدف البنيوية اللغوية، نظرا للاختلاف الجوهرى بين اللغة الطبيعية و اللغة الأدبية؛ من حيث الحقيقة و المجاز؛ ذلك أن وظيفة التواصل في الكلام الطبيعي تتبني على رد المجاز إلى الحقيقة، بينما تتأسس اللغة الأدبية على رد الحقيقة إلى المجاز، و يزداد الأمر تعاضلا كلما ازداد التيقن بأن النقد الحديث قد وجد نفسه محمولا على ابتكار خطاب نوعي لم يكن إلى تحقيقه من سبيل إلا عبر توليد المجازات، و من هنا كان الحديث في سياق آخر عن أدبية الخطاب النقدي¹.

و في آخر المطاف يستجمع "المسدي" الحصيلة المعرفية لهذا البعد النقدي في قوله بأن ((سلطة صاحب النص، و سلطة النص، و سلطة قارئ النص تتجمع ثلاثتها في قيمة مرجعية واحدة هي سلطة نص النص؛ من حيث أن الأثر الأدبي يتركب من مضمون تشهد به عليه لغته، و من لغة تشهد بنفسها له عن نفسها، فنص النص هو الشهادة التي تتجاوز كل اعتبار عرضي لتؤسس للنقد بعدا معرفيا خالصا))².

¹ ينظر: عيد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 61-62.

² نفسه، ص 62.

ثانيا: البعد التربوي

تناول "المسدي" البنيوية في بعدها التربوي من أجل استقصاء نقاط الإضاءة البيداغوجية في المنظور البنيوي¹. و قد عرض للبنيوية هنا من خلال النقاط التالية: مفهوم البعد التربوي، المجالات التي حققت فيها البنيوية إنجازات منقطعة النظير: مجال تعليم اللغات، مجال شرح النصوص، مجال صياغة المقال.

أ- مفهوم البعد التربوي:

عرّف "المسدي" البعد التربوي بأنه: ((ما يتّصل بكل سياق تعليمي، بالمعنى الذي يُحوّله لفظ "البيداغوجيا" كمصطلح متداول))².

ب- المجالات التي حققت فيها البنيوية إنجازات منقطعة النظير:

تتمثّل أهم المجالات التي حققت فيها البنيوية إنجازات قيّمة حسب تقييم "المسدي" في الآتي: مجال تعليم اللغات، مجال شرح النصوص، مجال صياغة المقال.

1- مجال تعليم اللغات:

ذهب "المسدي" إلى أنّ البنيوية قد حققت إنجازا تربويا منقطع النظير في ميدان تعليم اللغات بمختلف مجالاته النوعية؛ سواء ما اتّصل منها بتلقين اللغة القومية لأبنائها الناشئين بالأمومة على ملكة لهجتها، أو ما اتّصل منها بتلقين لغة أجنبية في أي مرحلة من مراحل العمر³.

و قد عمد "المسدي" هنا، إلى تبيان ((ما قدّمته الرؤية البنيوية في هذه القضية، بما يسمح بإعادة النظر في بعض المسلمات المعرفية))⁴.

و يتمثّل جديد البنيوية بخصوص قضية تعليم اللغات، في: إرساء معالم " النظرية التأليفية" كبديل لـ: "النظرية التحليلية"؛ فبعد أن كانت اللغة تُلقّن ابتداءً بأجزائها الأولية وهي الحروف، ثم يتم الانتقال إلى المركبات الأولى و هي الكلمات، فالمركبات الثانية و هي

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص64.

² نفسه: ص63.

³ ينظر: نفسه، ص63.

⁴ نفسه: ص63.

الجمال، أصبحت تُلقن انطلاقاً من الجملة بوصفها الخلية الدلالية المتماسكة بنيوياً، ثم ينشأ الوعي المتدرج نحو الأجزاء المركبة للجملة من الكلمات، و للكلمات من الحروف¹.

و قد رأى "المسدي" بأن الجديد الذي جاءت به البنيوية في قضية تعليم اللغات قد²:

- اختصر المسافة الزمنية الشاسعة على درب تلقين اللغة، و لا سيما لدى الناشئة.
- يسرّ الوصول بالطفل إلى متابعة نصوص اللغة عبر القراءة المسترسلة في وقت وجيز.

- مكّن من التعامل مع الطفل على أساس توليد المهارة التعبيرية دون اللجوء إلى تلقين القواعد النحوية، مع تحقيق الملكة السليمة بواسطة التحسس الفطري المتعاقب.

و قد سمح هذا الجديد -حسب المسدي- بمراجعة و إعادة النظر في أهم المسلمات المعرفية المتمثلة في: "اعتبار الطفل قاصراً منذ بداية تلقيه الكلام عن إدراك المفاهيم المجردة، و اعتبار المحسوسات هي المدارج الحتمية التي يتوسّل بها للوصول إلى المجردات"³.

أما "سمير شريف استيتية" فقد رأى غير الذي رآه "المسدي"، سواء ما تعلق بجديد البنيوية في تعليم اللغات، أو ما تعلق بمدى فاعلية و نجاعة هذا الجديد؛ حيث قال: ((اعتمد البنيويون في البداية، على الطريقة الجزئية في تدريس اللغة، و هي الطريقة التي تنطلق من الصوت و الحرف إلى الكلمة ثم إلى الجملة، و كان لهذه الطريقة أضرار كبيرة في تدريس اللغات. ثم اعتمد القوم - بعد ذلك - على طريقة الجملة، دون التركيز على أنظمة التراكيب و الجمل. و كانت النتيجة أسوأ مما رأيناه في تدريس اللغة بالطريقة الجزئية))⁴؛ و معنى هذا، أن البنيوية -حسب ماجاء به سмир شريف استيتية- لم تقدم مباشرة -مثلما قال المسدي- النظرية التأليفية بل اعتمدت قبلها على النظرية التحليلية، بالإضافة إلى أن كلا النظريتين لم تفلحا، و على العكس -مما قاله المسدي- فالنظرية التحليلية كانت نتائجها أشد سوءاً من وجهة نظر "سمير شريف استيتية".

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 64.

² ينظر: نفسه، ص 64-65.

³ نفسه، ص 65.

⁴ سмир شريف استيتية، اللسانيات (المجال و الوظيفة و المنهج)، ص 172.

2- مجال شرح النصوص:

1-2 مفهوم عملية شرح النصوص:

عرّف "المسدي" عملية شرح النصوص بأنها: آلية من الآليات التعليمية التي يُتوسل بها من أجل صقل ملكة الإدراك، و تهذيب موهبتي الاستيعاب و التمييز، و ذلك من خلال التعامل الدقيق مع اللغة، بوصفها مادة للدرس و أداة له في الوقت نفسه¹.

و قد نبّه "المسدي" إلى أن: عملية شرح النص بهذا المعنى، لا تقتصر على ضرب مخصوص من ضروب المعرفة، بل تشمل النص أياً كان نمطه: تاريخياً، فلسفياً، أدبياً... الخ².

2-2 الإشكالات الحاصلة في مجال شرح النصوص:

لقد مثّلت عملية شرح النصوص -حسب رأي المسدي- معضلة من معضلات المسلك التعليمي في مختلف المراحل، و لا سيما في مدارج الجامعات، حيث حامت حولها سجوف كثيرة شملت: الدلالة، و المنهج، و الغرض المنشود، و أكثر ما تراكم الالتباس حوله هو "مقاييس شرح النصوص"، و تتلخص أسباب هذه المعضلة -حسب تقدير المسدي- في افتقار المنهج التعليمي إلى تأسيس نظري في هذا المضمار³.

و قد علّل "المسدي" ما ذهب إليه هنا، من اعتبار المنهج التعليمي مفتقراً إلى تأسيس نظري، بمجموعة من المظاهر المصدقة له، و التي من أهمها⁴:

- أن جُلّ ما يكتسبه الطالب و الباحث الناشيء في مجال شرح النصوص يتأتى عن طريق التحسس الذاتي، أو الحدس التربوي عبر مسلك الخطأ و الصواب.
- اعتقاد المتلقي المفتقر إلى رياضة شرح النص بأن عملية شرح النص هي عملية عفوية، موكول أمرها إلى الصدفة، و بالتالي فهي بما يحوطها من أغاز عملية اعتباطية لا أكثر.
- اكتفاء الكتب التعليمية المصنفة في نطاق شرح النصوص، بتقديم مادة تطبيقية تحاول من خلالها بعث استعداد تربوي لدى المتلقي يعينه على ترويض المهارة بصفة

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 65.

² ينظر: نفسه، ص 66.

³ ينظر: نفسه، ص 66.

⁴ ينظر: نفسه، ص 66.

مباشرة. و من أمثلة هذه الكتب كتاب "اللغة العربية و مهاراتها (في المستوى الجامعي لغير المتخصصين)"¹. و مع موافقة "المسدي" لهذا الأسلوب من حيث نجاعته العملية، فإنه ينفي عنه الفائدة القيمة طالما يفتقر إلى التأسيس النظري.

جديد البنيوية بخصوص المنهجية العامة في عملية شرح النص:

تطرق "المسدي" هنا إلى الحلول المقترحة من طرف البنيوية بخصوص مسألتين تتعلقان بالمنهجية العامة في عملية تناول النص، بصفتها قناة بيداغوجية تقتضي تكامل العناصر الثلاثة التي تستوجبها كل عملية تعليمية وهي: الإستفهام، الفهم، فالإفهام. وهاتان المسألتان هما: مسألة القدرة على شرح النص دون محاكاته أو ترديده، و مسألة تساوق مراحل الشرح مع توالي أجزاء النص.

المسألة الأولى: القدرة على شرح النص دون محاكاته أو ترديده

لقد جاءت البنيوية -حسب المسدي- بطريقة جديدة في شرح النص، تتلخص في ثنائية "التحليل والتأليف". و فيما يلي شرح مفصل لها كما قدمها "المسدي".

إن النص أو أي قطعة مأخوذة منه هي عبارة عن ملفوظ لغوي يحمل مضمونا دلاليا، يُصطلح عليه بـ"منطوق النص"، أما المادة التي هي موضوع عملية الشرح، أي مضمون النص، فيصطلح عليها بـ"نص النص"، و نص النص هذا يمثل قاعدة الهرم البنيوي الذي تجسّمه عملية الشرح برمتها².

و تكون عملية شرح النص بأن يقوم الشارح بتحديد المكونات الدلالية لمادة النص أي لمضمونه، ثم يتدرج في اتجاهين اثنين، يتمثل الاتجاه الأول في تحليل كل مكون دلالي إلى عناصره الأولية، و هذا مساق تحليلي يفضي إلى اتساع قاعدة الهرم؛ أي اتساع مضمون النص؛ حيث يجعل المفهوم الواحد يتضاعف عدديا ضمن المجال اللغوي المشترك، و من ثم تكون الحصيلة "نص النص" من جهة و "نص شرح النص" من جهة ثانية. أما الاتجاه الثاني فيتمثل في البحث عمّا يجمع المكونات الدلالية ابتداء من المفاهيم البسيطة و ارتقاء إلى المفاهيم المركبة، حتى يتحقق المتصور الذهني الشامل، و هو ما يطابق قمة البناء

¹ ينظر: محمد رضوان الداية و محمد جهاد جميل، اللغة العربية و مهاراتها (في المستوى الجامعي لغير المتخصصين)، دار الكتاب الجامعي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2004.

² ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص67.

الهرمي. و من ثم، فإن عملية الشرح تبلغ منتهاها حالما يتم إنجاز التجريد الدلالي المتدرج من البنى الذرية إلى البؤرة الأم، بحيث يقع الإمساك بزمام المجامع المعنوية في مفهوم واحد متفرد¹.

و قد وضع "المسدي" أهمية هذه الطريقة المبتكرة في شرح النصوص؛ عندما قال بأن ((المد و الجزر بين البنية الدلالية الكلية و النوى الذرية المتناثرة في دائرة الحقل المفهومي، يوفر بيد الشارح جهازا مطاطيا يسمح بإعطاء مادة النص مستندات متنوعة، تبدوا في الوهلة الأولى تزيّدا على نص النص، و لكنها تحت عدسة المجهر الدلالي، تتجلى بمثابة العناصر الكامنة التي تم استخراجها من حيّز التضمين إلى حيّز التصريح))².

و في سياق حديث "المسدي" عن جديد البنيوية هنا، أجاب عن قضية "مدى مطابقة ما استخرجه الشارح للنص لما قصد إليه صاحب النص نفسه".

و قد ذهب بداية إلى القول بأن هذه القضية لا يُعترف بها في الغالب الأعم كمشكلة ذات علة، و مع ذلك فإن الحجة السائدة في هذا المضمار -حسب رأيه- هي القول بأن النص ما إن ينتهي منه صاحبه و يخرج إلى النور، حتى يغدو ملكا مشاعا لقرائه، فكل قارئ هو مالك عيني له لحظة قرائته له، و له حرية التصرف فيه³.

و علاوة على هذا التعليل المبدئي، فقد أضاف "المسدي" أن شرح النص بالطريقة السابق ذكرها، هو ابتعاث نص جديد يعد بمثابة التعادلية الناتجة من القيمة المضافة إلى "نص النص" بواسطة "شرح نص النص" مما يثمر موجودا جديدا هو "نص شرح النص"⁴.

المسألة الثانية: تساوق مراحل الشرح مع توالي أجزاء النص

لقد كان المعتقد السائد -حسب المسدي- هو أن سلامة شرح أي نص من النصوص مرهونة بتتبع أجزاءه كما وردت على الترتيب؛ بحيث لا يتحدد مضمون أي مقطع من المقاطع إلا في ضوء ما سبقه و ما سيتلوه، و بناء على هذا كان فقد كانت عملية شرح

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص67.

² نفسه، ص67.

³ ينظر: نفسه، ص68.

⁴ ينظر: نفسه، ص68.

النص تقتفي الأجزاء المركبة له بوفاء كامل، أما مع البنيوية فقد صارت عملية شرح النص تنطلق من نسيج النص فتفكك أجزاءه، ثم تعيد بنائها بما يولد هرما دلاليا جديدا¹.

و مع إقرار "المسدي" بوجهة النظرية الخطية، فقد رأى بأن لها سلبياتها المتمثلة في كونها تحد من مجال توليد النص من النص، و تحول دون ابتعاث بنية لغوية شارحة للنص انطلاقا من بنية لغوية مشروحة. أما جديد البنيوية فقد اعتبره البديل المنهجي الأفضل، لأن النص الشارح بواسطة هذا الجديد، يحقق -حسب رأيه- ارتباطه بالأصل؛ من حيث هو شارح لنص معين، و استقلاله بذاته؛ من حيث هو نص مستتب من نص معين².

3- مجال صياغة المقال:

3-1 مفهوم المقال:

قدّم "المسدي" مفاهيم عدّة للمقال، منها أنه³:

- في الأساس: آلية تسمح باستكشاف القدرة على ممارسة النظر العقلي وفق استدلال منهجي يفضي إلى رسوخ ملكتي التمييز و النقد.
- من الناحية البيداغوجية: إطار لممارسة تمرين ذهني.
- من الناحية المعرفية: سبر للقدرة المتوفرة لدى الإنسان في أن يطوّع الإدراك لديه بحسب سياق مرسوم سلفا.
- من جميع النواحي: حصيلة منبّهات ذهنية و استجابات فكرية تتخرط جميعا في النشاط العقلي المحض.

3-2 جديد البنيوية في مقابل السائد قبلها بخصوص منهجية إعداد المقال:

لقد كانت آلية المقال قبل البنيوية -حسب المسدي- قائمة دوما على التركيبية الثلاثية، من قضية فنيضة فتأليف، و هذه المنهجية أخذتها من الجدلية بعد أن استقامت مدرسة فلسفية ذات مضمون نظري يختص بفحص الظواهر الكونية⁴، أما مع البنيوية فقد أصبحت

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص 69.

² ينظر: نفسه، ص 69.

³ ينظر: نفسه، ص 70.

⁴ ينظر: نفسه، ص 70.

آلية المقال مُبنية على الموقف المتوحد؛ بحيث يتفرد التحليل فيها بوجهة واحدة من النظر، تُصاغ بشكل متناسق في قالب بنية متماسكة¹.

3-3 إيجابيات الجديد البنيوي في مقابل سلبيات السائد قبله:

عدّد "المسدي" مثالب المنهجية المستقاة من المدرسة الجدلية على آلية المقال، مع توضيحه لإيجابيات جديد البنيوية عليها؛ و ملخّص حديثه في هذا الشأن تمثل في أن البنيوية قد أصلحت ما اعترى آلية المقال من مشاكل بسبب منهجيتها القديمة.

إن طول اعتماد المناهج التعليمية للطريقة الجدلية، أدى إلى الإغراق في شكلية التركيب الثلاثي، فتلاشى جوهر العملية الجدلية، و ضاع منها لبها النقدي، و أصبحت في كثير من الأحيان رياضة صورية لا أكثر، مما أدى إلى الطعن في قيمة هذه الآلية البيداغوجية².

و بالتقاء المنهج البنيوي مع التيار الرافض لشكلية الجدل السوري عبر القنوت التعليمية، أعيد الاعتبار لآلية المقال، و تسوّى لها التحرر من قيود الشكلية الجدلية كشكل منهجي مُعمّم، و بالمقابل تغذت بمعطيات المنهج البنيوي. و لا بد من الإشارة هنا إلى عدم وجود رفض قطعي -مع جديد البنيوية- لكل تناول جدلي ما دام يتناسب مع طبيعة الموضوع المطروح، و يحقق جوهر العملية الجدلية³.

3-4 نتائج الجديد البنيوي على آلية المقال:

لقد نتج عن جديد البنيوية -حسب ما جاء به المسدي- مستجدات عدة مست النواحي التالية: خصائص المقال و الضوابط المنهجية المطلوبة في بناء المقال و مقياس الحكم على جودة المقال.

خصائص المقال:

لقد أدى جديد البنيوية إلى⁴:

- انعقاد المقال من القيود الصورية؛ بحيث تسنى له أن يستوعب استعدادات الفكر على اختلاف تقلباتها.

¹ ينظر: عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص72.

² ينظر: نفسه، ص70-71.

³ ينظر: نفسه، ص70.

⁴ ينظر: نفسه، ص72.

- تحلي المقال بالطوعية التي تتماشى من ناحية مع تنوع المراحل البيداغوجية المتعاقبة، و من ناحية أخرى مع غزارة الحقول المعرفية، التي يظل فيها المقال مقياساً أساسياً في إطلاق الحكم المعياري على صاحبه.

الضوابط المنهجية المطلوبة في بناء المقال:

و من نتائج الجديد البنيوي هنا¹:

- الحسم النظري منذ المنطلق في مضمون المقال.
- التناسق الداخلي للفكرة المحللة، و الانسجام المسترسل بين المضمون النظري والصياغة المؤدية من الناحية الشكلية للمقال.

مقياس الحكم على جودة المقال:

بعد أن كان المقياس في منهج المجادلة قائماً على المحاسبة بما ورد ضمن التحليل وبما لم يرد، أصبح في المنهج البنيوي قائماً على المحاسبة بما ورد ضمن التركيب المنقرد فقط².

¹ ينظر: عيد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، ص72.

² ينظر: نفسه، ص72.

خاتمة

خاتمة:

و في الأخير هذه خلاصة لأهم ما استجمعته من فكرٍ و معلومات بعد الاطلاع على كتاب "قضية النبوية (دراسة و نماذج)" لـ "عبد السلام المسدي" و مقارنة فحواه بفحوى بعض البحوث النقدية الأخرى التي تناولت موضوع النبوية بالدراسة و النقد. بالإضافة إلى عرض موجز لأهم ما سجّله البحث من مآخذ على الكتاب ومزايا له. و تتمثل أهم الأفكار و المعلومات التي استجمعتها بخصوص موضوع النبوية بعد هذا البحث، فيما يلي:

- "اللغة" هي الرحم الأولى لنشأة المعيار النبوي و ليس "علم اللغة".
- مفتاح التحول الجذري في الانتقال من المنهج التاريخي إلى المنهج النبوي هو التمييز بين زمنين اثنين عند دراسة الظاهرة اللغوية، و هذين الزمنين هما: "الزمن الطبيعي" و "الزمن الافتراضي".
- النبوية هي منهج يستعان به في دراسة الظواهر و معالجتها.
- المنهج النبوي تم استثماره في مختلف الميادين و المجالات العلمية، الدقيقة منها والنسبية.
- المنهج النبوي يسمح بمعالجة الظاهرة المدروسة معالجة زمنية؛ أي عبر مراحل زمنية مختلفة.
- تدرج الفلسفة النبوية ضمن "سلطة المفاهيم" في مقابل اندراج الفلسفة التاريخية ضمن "سلطة الوقائع"، و هذا هو سر التصادم بينهما.
- لم تلغ النبوية مبدأ التعليل السببي، و إنّما جاءت بضرب جديد من العلية يقوم أساسا على الاندراج المتزامن في البناء الواحد.
- لم تحسم النبوية أمرها بخصوص قضية "البنية" و "الوظيفة" و أيهما يكون محددًا للآخر.
- الإنسان حاضر و فاعل في الفلسفة النبوية، باعتباره المستنبت لبنى الظواهر المدروسة، في مقابل غيابه أو تغييبه في الفلسفات السابقة عليها.

- على الصعيد المعرفي، ارتأت البنيوية في تحاورها الجدلي الدائم مع الظواهر سلما
قيما درجاته مرصوفة كالتالي:

1. الأشياء كما هي لها وجودها النوعي و هو وجود ينفصل عن الإدراك المباشر.
2. الأشياء لها وجود يطابق الصورة التي تدرك عليها، و هذا الوجود يأتي في
المرتبة الثانية، لأن الصورة التي تُدرك وفقها الأشياء تختلف من شخص لآخر،
كما تختلف عند الشخص الواحد من ظرف زمني لآخر، و من موقع مكاني
لآخر.

3. الأشياء لها وجود آخر - عدا الوجودين السابقين- و هو وجود يطابق الصورة

التي تتطبع حولها في ذهن الإنسان انطلاقا من تلقيه لتعبيرات الآخرين عنها.

- على الصعيد المعرفي، و فيما يتعلق بمسألة مقياس عقل العقل للأشياء، جاءت
البنيوية بمنطق الفوضى في مقابل منطق النظام، كسبيل ميسر لتحقيق المعرفة بدلا
منه، ومعها أصبح الغائب حكما على الحاضر، بعد أن كان الحاضر حكما على
الغائب.

- أدى التوظيف المذهبي للبنيوية في الوطن العربي إلى فهم خاطئ لها، بعكس نتائج
التوظيف المذهبي لها في بيئتها الأصل، حيث تم فيها التمييز على إثره بين المعرفة
الفاعلة و المعرفة المفعول بها.

- لم تتمكّن البنيوية في بعدها النقدي من مماثلة علم اللغة في مسعاه البعيد نحو
إدراك النواميس التي تحكم الظاهرة الأدبية؛ بمعنى أنها لم تتمكن من الوصول إلى
النمط المنشود و هو علم الأدب.

- حققت البنيوية إنجازات منقطعة النظير في الميدان التربوي بمختلف مجالاته؛
ويتمثل جديدها في مجال تعليم اللغات، في مجيئها بالنظرية التحليلية في مقابل
النظرية التأليفية. وفي مجال شرح النصوص، ألغت البنيوية ضرورة تساوق مراحل
شرح النص مع أجزائه المختلفة، و ضرورة استخلاص الشارح للمعنى نفسه الذي
يقصده صاحب النص، و استحدثت ثنائية "التحليل" و "التركيب" كوسيلة جديدة في
شرح النصوص. أما في مجال صياغة المقال، فقد ألغت ضرورة انبناء المقال على
التركيبية الثلاثية من قضية فنقيضة فتركيب، و أصبح المقال معها منبنيًا على

الموقف الواحد المتفرد، و أصبح مقياس الحكم على جودة المقال قائما على المحاسبة بما ورد ضمن التركيب المتفرد فقط، بدل المحاسبة بما ورد ضمن التحليل و بما لم يرد ضمنه.

و ما يمكن قوله عن الموقف الفكري لـ: "المسدي" من البنيوية، هو أنه يبدو - من خلال مختلف آراءه و أحكامه الواردة في كتابه- منتصرا و مؤيدا، أكثر من كونه معارضا أو متجاوزا لها.

و من أهم ما استنتجه البحث من مأخذ على الكتاب، ما يلي:

- الإطلاق و عدم التخصيص في العنونة الداخلية للكتاب.
- وجود نوع من عدم التوازن في التقسيم و التجزيء لفحوى الكتاب و مضمونه.
- الغموض و التعقيد النسبي في أسلوب المسدي.
- غياب علامات الترقيم و عدم التوازن في نظام الفقرات.
- غياب أسلوب التجزيء و العنصرة في طرح الأفكار و معالجة المسائل في كل بعد من أبعاد البنيوية.
- عدم توضيح الهدف من تناول البنيوية في جل أبعادها المطروقة، و كذلك الخطة المتبعة لتحقيقه.
- كثرة استعمال عبارات من مثل: "و معلوم أن" و "ويدهي أن"، مما أضاع توضيح وتبرير العديد من المسائل و القضايا الجزئية في الكتاب، خاصة بالنسبة للباحثين المبتدئين.
- افتقار الكتاب لملحقات تخص أهم الأعلام و المصطلحات الورودة في متنه، رغم حاجته الشديدة لذلك.
- و مثلما سجّل البحث مأخذ على الكتاب، فقد سجّل له العديد من المزايا التي تفرد بها وتميّز، ويتمثل أهمها في التالي:
- الموضوعية في الطرح و المعالجة و المناقشة.
- الاعتراف بجهود الباحثين السابقين في فك أسرار قضية البنيوية.
- الشرح و التمثيل و التعليل و التفسير في كل معلومة تُقدّم، و في كل رأي و حكم يُصدر بخصوص مختلف المسائل التي تمت معالجتها، و مناقشتها.

- مناسبة عنوان الكتاب لمحتواه.
- مناسبة المنهج و الخطة المتبعة في الكتاب لأهداف و مبتغيات تأليفه.
- خصوصية دراسة "المسدي"، و شموليتها مقارنة بدراسات غيره لموضوع البنيوية.
- احتواء الكتاب لمقتطفات متنوعة، موجزة و دقيقة لدراسات مختلفة للبنيوية، متميزة عن دراسة "المسدي" لها.

وإذا وضع كتاب "قضية البنيوية (دراسة و نماذج)" في "ميزان النقد" رجحت من غير شك كفة "مزاياه" و أمكن التجاوز عن بعض ما به من "الهتات"، و الكتاب يشهد بقدرة "عبد السلام المسدي" اللغوية، و كفاءته العلمية و المعرفية، و تمكنه من معالجة موضوع كتابه في أعماقه المختلفة، بطريقة شاملة متكاملة، مع تحليه بالموضوعية، و الدقة العلمية، بالإضافة إلى اعترافه باعترافه من جهود غيره من الباحثين في فك أسرار قضيته المحورية أي "البنيوية". و قد عبّر عن كل هذا جميع الباحثين و الدارسين الذين استفادوا و استزادوا من غزير إنتاجه العلمي، التنظيري منه و التطبيقي، في كلا المجالين: اللغوي والأدبي.

ملحق



عبد السلام المسدي

التعريف بـ"عبد السلام المسدي"¹:

من مواليد ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين للميلاد، ولد في صفاقس في الجمهورية التونسية، وتخرج من دار المعلمين العليا عام ألف وتسعمائة وتسعة وستين، أحرز التبريز في الآداب العربية عام ألف وتسعمائة واثنين وسبعين، فالتحق بالجامعة التونسية للتدريس، حصل على دكتوراة الدولة عام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين، برسالة حول التفكير اللساني في الحضارة العربية .

تدور بحوثه في مجال علوم اللغة والنقد الأدبي وقراءة التراث، يضطلع إلى جانب نشاطه الأكاديمي بمهام متنوعة، تولى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي عام ألف وتسعمائة وسبعة وثمانين إلى عام ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين، يمثل حالياً الجمهورية التونسية لدى جامعة الدول العربية والمؤسسات التابعة لها.

له إنتاج متنوع، ومن ذلك كتبه المنشورة التالية:

- الأسلوبية والأسلوب - الدار العربية للكتاب طبعتها الأولى 1977م.
- التفكير اللساني في الحضارة العربية - الدار العربية للكتاب طبعتها الأولى عام 1981م.
- قراءات مع الشابي والمنتبي والجاحظ وابن خلدون - الشركة التونسية للتوزيع عام 1981م.
- النقد والحداثة - دار الطليعة في بيروت عام 1983م، وهناك أيضاً طبعة أخرى من دار أمية في تونس.
- قاموس اللسانيات (عربي فرنسي - فرنسي عربي) مع مقدمة في علم المصطلح - الدار العربية للكتاب، تونس عام 1984م.
- اللسانيات من خلال النصوص - الدار التونسية للنشر طبعته الأولى 1984م.
- الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوصفية - الدار العربية للكتاب طبعته الأولى في عام 1985م، تونس.
- اللسانيات وأسسها المعرفية - بمعية الدكتور محمد الهادي الطرابلسي - الدار التونسية للنشر.
- النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص - الدار التونسية للنشر

¹ <http://alithnainya.com> يوم: 2016/04/18، 10:45.

- عام 1988م - بمعينة الدكتور عبد القادرة المهيري والدكتور حمادي صمود.
·مراجع اللسانيات - الدار العربية للكتاب، تونس 1989م.
·مراجع النقد الحديث - الدار العربية للكتاب، تونس 1989م.

قائمة المصادر و المراجع

أولاً: المصادر

01- عبد السلام المسدي، قضية البنيوية (دراسة و نماذج)، دار الجنوب، تونس،
دط، 1995.

ثانياً: المراجع

1- الكتب:

02- إبراهيم عبد العزيز السمري، إتجاهات النقد الأدبي العربي (في القرن
العشرين)، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2011.

03- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ط2، 1999.

04- أحمد مومن، اللسانيات (النشأة و التطور)، ديوان المطبوعات الجامعية، دط،
دت.

05- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب،
تح: عبد الله علي الكبير و آخرون، دار المعارف، القاهرة، دط، دت، مج:01،
ج:02، ج: 03، ج: 09/ مج:02، ج:05/ مج: 04، ج:32/ مج:05، ج:41.

06- جهاد فاضل، أسئلة النقد (حوارات مع النقاد العرب)، الدار العربية للكتاب،
دط، دت.

07- عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط3،
1977.

08- عبد السلام المسدي، الأسلوب و الأسلوبية، الدار العربية للكتاب، تونس،
ط3، دت.

09- سمير سعيد حجازي، إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، دار طيبة،
القاهرة، دط، 2004.

10- سمير شريف استيتية، اللسانيات (المجال و الوظيفة و المنهج)، جدارا للكتاب
العالمي، عمان-الأردن، عالم الكتاب الحديث، إريد-الأردن، ط2، 2008.

11- صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومه، الجزائر، دط، دت.

12- صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، دط، دت.

- 13-: نظرية البنائية (في النقد الأدبي)، دار الشروق، القاهرة، ط1،
1993.
- 14- الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية (دراسة تحليلية إستمولوجية)، دار
القصبة، الجزائر، ط، 2001.
- 15- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)، سلسلة عالم
المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ع: 232، يناير
1978.
- 16- عمر محمد الطالب، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار السير، المغرب،
ط1، 1988.
- 17- فاضل ثامر، اللغة الثانية (في إشكالية المنهج و النظرية و المصطلح في
الخطاب النقدي العربي الحديث)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994.
- 18- عبد القادر المهيري و آخرون، أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي
لعلوم التربية، تونس، مارس 1986.
- 19- كريم الرديني، فصول في علم اللغة العام، دار الهدى، الجزائر، ط، 2009.
- 20- كمال أبو ديب، جدلية الخفاء و التجلي (دراسات بنيوية في الشعر)، دار العلم
للملايين، بيروت، ط3، 1984.
- 21- عبد الله إبراهيم و سعيد الغانمي و عواد علي، معرفة الآخر (مدخل إلى
المناهج النقدية الحديثة)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1996.
- 22- محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية تكوينية)، دار
العودة، بيروت، ط1، 1979.
- 23- محمد رضوان الداية و محمد جهاد جميل، اللغة العربية و مهاراتها (في
المستوى الجامعي لغير المتخصصين)، دار الكتاب الجامعي، الإمارات العربية
المتحدة، ط1، 2004.
- 24- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي
العربي، الدار البيضاء، ط3، 1992.

- 25- محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1997.
- 26- موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في البحوث الإنسانية (تدريبات عملية)، تر: بوزيد صحراوي و آخرون، دار القصبية، الجزائر، ط2، 2010.
- 27- ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا و مصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2002.
- 28- نجيب العوفي، درجة الوعي في الكتابة (دراسات نقدية)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1980.
- 29- نعمان بوقرة، اللسانيات (اتجاهاتها و قضاياها الراهنة)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2009.
- 30- يمنى العيد، في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، دت.
- 31- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح (في الخطاب النقدي العربي الجديد)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
- 32-: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1، 2007.

2- المقالات:

- 33- حمادي صمود، "المناهج اللغوية في دراسة الظاهرة الأدبية"، الأعلام، العراق، ع:07، 01 يوليو 1979.
- 34- سامية راجع، "إشكالات البنيوية في كتابات النقاد العرب المعاصرين"، الأثر، مجلة الآداب و اللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة-الجزائر، ع: 05، مارس 2006.
- 35- عائشة الفقيه، "تعريف المشكلة، القضية، المنظومة و مقارنة بين التعليم والتعلم"، قسم الدبلوم التربوي، الكلية الجامعية بالبقنقة، جامعة أم القرى، 2013.

3- المواقع الإلكترونية:

- 36- <http://www.fikr.net/fikrauthor>
- 37- <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
- 38- www.goodreads.com
- 39- www.mediafire.com
- 40- <https://www.google.com>
- 41- <http://alithnainya.com>

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
إهداء.....	
مقدمة.....	أ-ج
مدخل: دراسة وصفية نقدية للجانب الشكلي من الكتاب.....	04
أولاً: عنوان الكتاب و فحواه.....	06
ثانياً: أسباب تأليف الكتاب وأهدافه.....	10
ثالثاً: منهج تأليف الكتاب و خطته العامة.....	13
رابعاً: ملاحظات منهجية عامة.....	17
الفصل الأول: نشأة البنيوية و تبلورها.....	29
أولاً: البعد التكويني للبنيوية.....	30
ثانياً: البعد المنهجي للبنيوية.....	38
الفصل الثاني: أهم تطورات البنيوية و تحولاتها.....	48
أولاً: البعد الفلسفي للبنيوية.....	49
ثانياً: البعد المعرفي للبنيوية.....	60
ثالثاً: البعد المذهبي للبنيوية.....	69
الفصل الثالث: أهم تطبيقات البنيوية و استثماراتها.....	79
أولاً: البعد النقدي للبنيوية.....	80
ثانياً: البعد التربوي للبنيوية.....	111
خاتمة.....	119
ملحق.....	124

128قائمة المصادر و المراجع
133فهرس الموضوعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص:

إن موضوع هذا البحث هو دراسة وصفية نقدية لكتاب "قضية البنيوية (دراسة ونماذج)" لـ: "عبد السلام المسدي"، و قد أردت من خلاله الإجابة عن مجموعة من التساؤلات أهمها: ما مدى مشروعية الدراسة التي يتضمنها هذا الكتاب؟ و ما مدى تمثُّل "المسدي" لمنهجية البحث العلمي في كتابه؟ و كيف طرح وعالج قضية البنيوية فيه؟ وما هي أهم مسألتها وإشكالاتها التي ناقشها و فصل فيها؟ وما موقع آرائه النقدية بخصوصها ضمن آراء غيره من النقاد تجاهها؟ و ماذا عن موقفه الفكري من قضية البنيوية في صورتها العامة؟

و للإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدت خطة بحث تكونت من: مقدمة و مدخل و ثلاثة فصول وخاتمة. احتوى المدخل على "دراسة وصفية نقدية للجانب الشكلي من الكتاب" أما الفصول الثلاثة فقد تضمنت "دراسة وصفية نقدية لمضمون الكتاب"، و الخاتمة احتوت حوصلة لأهم نتائج البحث. و قد فرضت طبيعة البحث اتباع المنهج الوصفي في معالجة أهم مسأله و قضاياها.

Conclusion :

Le thème de cette recherche est une étude descriptive critique du livre (**question structuralisme -étude et modèles-**) de l'auteur (**abdessalam al masdi**), j'ai voulu par le biais répondre à une série de questions notamment : quel est le degré de légalité de l'étude contenue dans ce livre ? à quel niveau le Masdi a représenté la méthodologie de la recherche scientifique dans son livre et comment il a présenté et traite la question structuralisme ? et quels sont les principaux problèmes discutés et résolus? . Quel est la situation de ses avis critiques parmi celles des autres ? et quel est son attitude intellectuelle de la question structuralisme dans son image générale ?

Pour répondre à ces questions j'ai adopté un plan de recherche composé de : Une introduction. Trois parties et conclusion.

_ l'introduction comporte une **étude descriptive critique** du côté formalité du livre.

_ les trois parties comportent une **étude descriptive critique** du contenu du livre.

_ la conclusion a résumé les principaux résultats de la recherche.

La nature de l'étude a obligé de suivre **la méthode descriptive** pour traiter les principales questions.